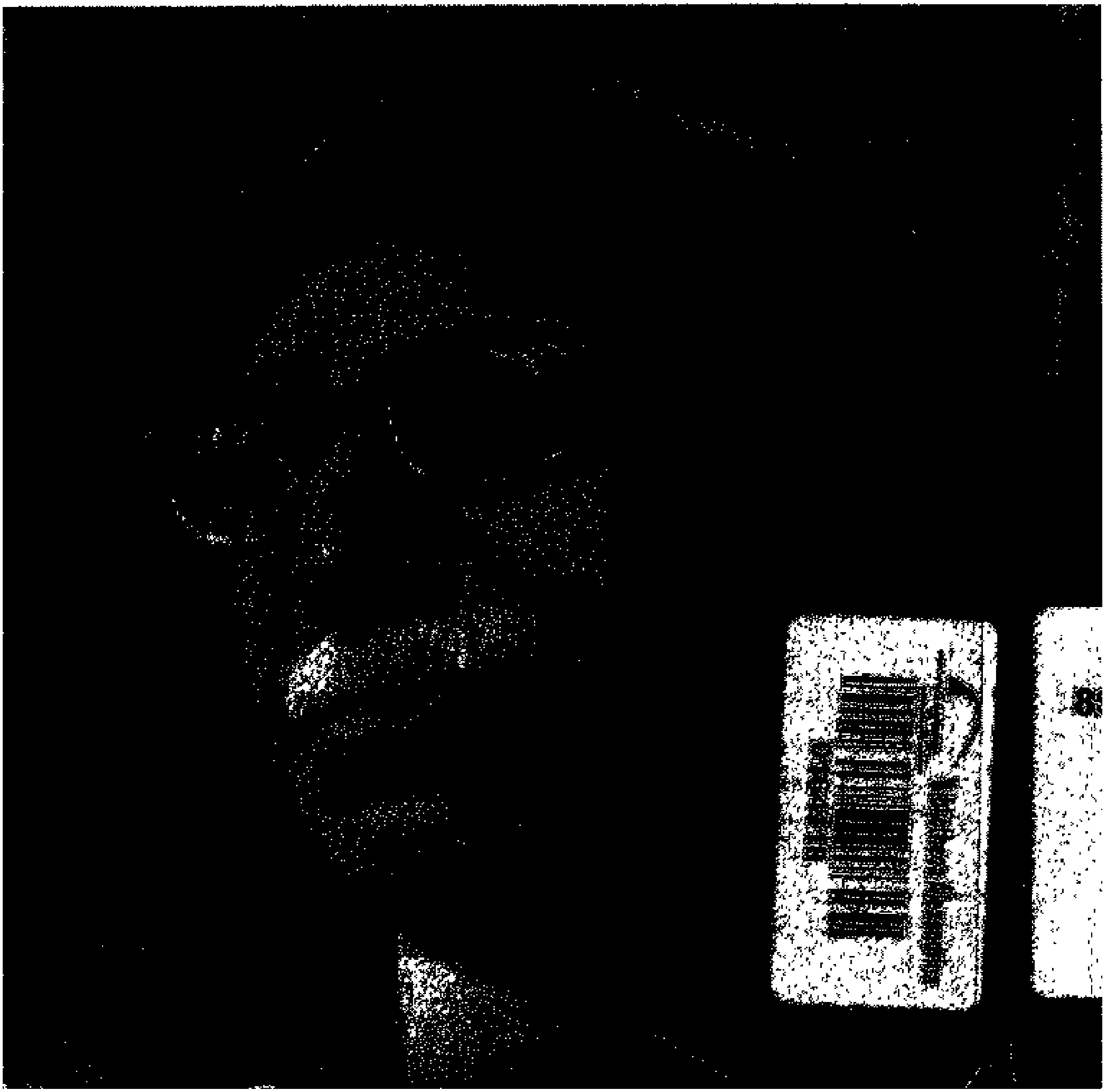
مصر
بين عهدين

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم

مصر بين عهدين

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ ــ محمد ﷺ (سيرة حوارية)	....	١٩٣٦
٢ ــ عودة الروح (رواية)	....	١٩٣٣
٣ ــ أهل الكهف (مسرحية)	....	١٩٣٣
٤ ــ شهرزاد (مسرحية)	....	١٩٣٤
٥ ــ يوميات نائب فى الأرياف (رواية)	....	١٩٣٧
٦ ــ عصفور من الشرق (رواية)	....	١٩٣٨
٧ ــ تحت شمس الفكر (مقالات)	....	١٩٣٨
٨ ــ أشعب (رواية)	....	١٩٣٨
٩ ــ عهد الشيطان (قصص فلسفية)	....	١٩٣٨
١٠ ــ حمارى قال لى (مقالات)	....	١٩٣٨
١١ ــ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية)	....	١٩٣٩
١٢ ــ راقصة المعبد (روايات قصيرة)	....	١٩٣٩
١٣ ــ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة)	....	١٩٤٠
١٤ ــ حمار الحكيم (رواية)	....	١٩٤٠
١٥ ــ سلطان الظلام (قصص سياسية)	....	١٩٤١
١٦ ــ من البرج العاجى (مقالات قصيرة)	....	١٩٤١
١٧ ــ تحت المصباح الأخضر (مقالات)	....	١٩٤٢
١٨ ــ بجماليون (مسرحية)	....	١٩٤٢
١٩ ــ سليمان الحكيم (مسرحية)	....	١٩٤٣
٢٠ ــ زهرة العمر (سيرة ذاتية ــ رسائل)	....	١٩٤٣
٢١ ــ الرباط المقدس (رواية)	....	١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينتجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجـــم ونشر بالفرنسيـــة فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلـة الحكـم : ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

مقــدمة

روح « مصر بين عهدين »

هذا الكتاب يتناول « روح مصر » . ولا أريد هنا استخدام عبارة « شخصية مصر » لأن الشخصية تتكون من عناصر منوعة : منها الجغرافى والتاريخى والسياسى والاجتماعى والعلمى والأدبى والفنى .. ولا بد أن يلم بكل هذا من يريد أن يبحث فى أى شخصية .. سواء البحث فى شخصية فرد أو جنس أو وطن .. كما لا بد له من اتخاذ المنهج ثم المراجع المختلفة اللازمة لبحثه .. ولما كان الذى يهمنى هو « الروح » والروح كما توجد فى القواميس اللغوية قريبة من « الرائحة » .. فإذا أردت أن تشم وردة فإن الذى يصل إليك رائحتها ، أى روح غير المنظور فيها .. أما إذا أردت أن تبحث فى كنه الوردة ، فلا بد أن تفك أجزاءها

وتضعها تحت « مكروسكوب » أو وسائل أخرى للتحليل .. وعندئذ قد لا يخطر فى بالك أن تشمها وبالتالى تبتعد عن رائحتها ومن ثم روحها .. لكل ذلك أريد هنا أن أشم رائحة مصر .. وعندئذ أقترب من روحها .. وأشم الرائحة فى « تجربة » .. ولذلك أعتمد فى معرفة « مصر » على تجربتى الخاصة ، واتصالى الشخصى بها فى مواقف بالذات .. وليس على مطالعة أوصافها فى مجلدات مكدسة حولى فى حجرة مغلقة .. وعندما أسأل : « ما هو ؟ أو من هو المصرى ؟ » لا أرجع إلى كتب .. ولكن أرجع إلى المرجع المباشر لتجربتى الخاصة النابعة من مواقف محددة ..

وقد حدث هذا وأنا فى صباى أو مبدأ شبابى ، عندما كنت فى الريف ، ووجدت « الفلاح المصرى » المستقر فى أرضه منذ آلاف السنين ، يعيش بين جنسين مختلفين : أحدهما التركى والثانى « البدوى » .. أما التركى فهو سيد البلد باعتبار أن العثمانيين هم أصحاب السيادة السياسية على مصر وهى التى تدفع لهم الجزية .. أما « البدوى » فهو الذى يحترف حراسة زراعة

مصر وحدودها ، وعلى هذا الاعتبار لا يخضع البدو فى مصر لنظام الجندية أو دفع « البدلية » ، وهذا الامتياز جعلهم يضعون أنفسهم فى مستوى أعلى من مستوى الفلاح المصرى ؛ ولذلك كان البدوى يرفض رفضًا باتًا تزويج ابنته بفلاح ويقول المثل السائر عندهم : « أرمى بنتى للتمساح ولا أزوجها للفلاح » .. أما التركى فهو ينطق لفظ « فلاح » باحتقار ويقول : « جنس فلاح قذر » .. فى حين أن المنتج الوحيد الذى يزرع ويطعمهم جميعا هو هذا « الفلاح » المصرى المنبوذ . إذن « المصرى » لم يكن له وجود إلا فى صورة محتقرة .. ولذلك عندما انتهت الحرب الأولى بهزيمة الدولة العثمانية ، ولم يبق لها من وضع سياسى إلا الواقع وحده وهو الاحتلال الانجليزى ، ذهب زعماء مصر سنة ١٩١٩ يسألون الإنجليز عن وضعهم ، فسألهم الإنجليز عما يقصدون ، فقالوا : زوال الاحتلال البريطانى .. فلما سألهم الإنجليز وبعد الاحتلال هل تعودون إلى سيادة الدولة العثمانية المنهزمة ؟ فقالوا : لا ؛ بل تعود مصر إلى مصر .. فدهش

الإنجليز وسألوا : وما هى مصر !؟ إننا لا نعرف شيئا اسمه مصر ، ولكن فقط مجرد قطر اسمه « القطر المصرى » كما هو موجود على الخرائط الرسمية .. يتبع سياسيا الدولة العثمانية ، وحضاريا « الحضارة العربية » حسب اللغة والدين .. أما مصر ، فأين هى ؟ وما هى مقوماتها ؟.. وما هى شخصيتها ؟..

وكانت الإجابة عسيرة .. وعندئذ قام رجال الفكر والفن والاقتصاد يجيبون عن السؤال ويبحثون عن مصر .. قام طلعت حرب بإنشاء بنك باسم مصر .. ونهض رجال الأدب والفن يصورون « مصر » ويعبرون عنها .. كل ذلك ليجيبوا عن سؤال الإنجليز ويقولوا لهم : ها هى ذى « مصر » التى نريد لها الاستقلال بأرضها .. فالبحث إذن فى العشرينات عن « شخصية مصر » و « روح مصر » لم يكن المقصود به كما حدث أخيرًا مجرد موضوع يستهدف الدراسة والكتابة والتأليف .. بل كان فى أعقاب ١٩١٩ أمرًا حيويًا خارجًا من ضرورة ملحة .. من صميم كياننا .. وهو إقناع من ينكر علينا وجودنا وحقنا فى هذا الوجود ..

وهذا كان شعورى الخاص يوم كتبت فى العشرينيات أى بعد قيام ثورة ١٩١٩ بنحو سبع سنوات : رواية « عودة الروح » أى روح مصر .. لم يكن قصدى تأليف رواية .. بل إقناع نفسى بأنى أنتمى إلى بلد له كيان محدد مستقل وتاريخ طويل نمنا فيه وآن لنا أن نستيقظ وتعود إلينا الروح التى اختفت عنا وعن الآخرين تحت تراب الزمن ..

* * *

وكما أن اللوحة المعلقة على حائط لا يمكن تمييز ملامحها وأنت ملتصق بها .. بل يجب الابتعاد عنها خطوة أو خطوتين حتى تستطيع العين أن تحيط بها ، وتراها فى شمولها .. كذلك لا بد من الابتعاد قليلا عن بلدنا لنرى صورتها بوضوح .. وهذا ما حدث لى يوم تركت مصر فى أوائل العشرينات أى بعد سنوات قليلة ، نحو أربع أو خمس سنوات ، من ثورة ١٩١٩ ورحلت إلى فرنسا .. وجعلت أتطلع إلى ملامح بلادى .. كان هذا هو انطباعى وأنا أتطلع إلى صورة بلدى مصر فى ذلك العهد ، ثم إلى صورتها فى عهد آخر بعد ما يقرب من نصف قرن ..

* * *

فصورة « مصر بين عهديـن » هـى صورة « روح » و « رائحة » كما ينظر إليها على بعد .. من بلاد الغربة .. فنحن لا نعرف أنفسنا جيدًا بين أهلنا .. بل نعرف أنفسنا فى أعماقها واختلافها وتميزها ونحن بين أجناس أخرى مختلفة ، وحضارات غير حضارتنا .. هنا تبرز « مصر » ذات الروح والرائحة ، كما يبرز المكنون من مشاعرنا نحوها فى هذه الجملة البسيطة الصادقة التى نطقت بها تلك الأسطى المطربة الشعبية « العالمة من عوالم الفرح » وقد تحرك بها القطار مع زميلاتها بعيدًا عن مصر لإحياء فرح فى الإسكندرية .. فلم تطق هذا البعد عن مصر يومًا أو بعض يوم ، فصاحت :

— يا حبيبتى يا مصر !..

١٤٠٤ ـ ١٩٨٣

توفيق الحكيم

مصر بين عهدين
فى

رحلة على جناح عصفور

فكرة هذه الرحلة قديمة .. والعصفور عندى قديم أيضًا .. منذ كتابى « عصفور من الشرق » .. أما فكرة الرحلة فى هذا الكتاب فهى شىء آخر .. فلقد عُرِض علىّ القيام بها منذ بضع سنوات ، وكنت أتكاسل وأتخاذل وأؤجل التنفيذ من عام إلى عام مخترعًا شتى الحجج ، إلى أن فكرت أخيرًا فى هذه المرحلة من عمرى ، وأيقنت أن كل عام يمضى تزداد بى السن تقدما والصحة ضعفا . فلن أحتمل بعدئذ السفر .. فحزمت أمرى وقمت أنفض الغبار عن همتى .. لكن ما هو المطلوب منى ..؟

قيل لى : الأمر بسيط ، إنها رحلة مصر متمثلة فى مصرى بين

عهدين مختلفين : من عهد العشرينات إلى اليوم.. ولكن الأمر ليس سهلا فقد مضى نحو نصف قرن بين العهدين .. فصور الماضى كادت تزول من رأسى .. أما الحاضر فإنى أواجهه بنفس شاخت وفقدت الكثير من مرح الشباب وانطلاقته وحماسته ودهشته .

ولكنى سأحاول .. وأبدأ فأعتصر رأسى لأستخلص منه ذلك الشريط من الذكريات ، الذى أخشى أن يكون قد بهت ، وأحلق من فوق جناح عصفور لأشمل بنظرتى السريعة ، ما كان وما يكون .

* * *

أما ما كان فهو يوم فى مطلع العشرينات من هذا القرن ، يوم صيف ، شهر يولية فيما أذكر ، وضعت قدمى على سلم باخرة تذهب بى إلى فرنسا ، لم تكن الطائرات بالطبع قد استخدمت فى السفر ، ولم أكن قد ركبت البحر قط .. كانت الباخرة تسمى « الجنرال متزنجر » ، (جنرال فى الجيش الفرنسى طبعا ، ماذا صنع هذا الجنرال لتسمى الباخرة باسمه ؟ لا أدرى ، كل ما نجده عنه فى القاموس الفرنسى أنه ولد عام ١٨٤٢ ومات

عام ١٩١٤ ، أى أنه لم يحضر حتى الحرب العالمية الأولى ، وربما حضرها ومات عند أول طلقة). وقد علمت أنهم أعدموها أو فكوا أجزاءها بعد تلك الرحلة . ركبت بالبداهة فى الدرجة الثانية ، لأنه لم يكن بها درجة ثالثة ، وكانت الأيام تبدو طويلة رتيبة مملة على ظهر السفينة ، وأمامنا خمسة أيام طوال لا ندرى كيف نقضيها . وعلمنى أحد رفاق السفر لعبة « الدومينو » لقتل الوقت .. وهذه الألعاب لا تدخل عقلى ، وكثيرًا ما حاولوا تعليمى لعب « الطاولة » ولم يثمر التعليم ، ولكن سأم السفر الطويل فى بحر لا يتغير أرغمنى على هذه اللعبة ، فلعبتها مع الرفاق حيثما اتفق وهم يضحكون من لعبى ، إلى أن اقتربنا من الشاطئ فنسيتها ولم أعد قط إليها فى حياتى ..

ووصلنا آخر الأمر إلى ما يطلق عليها « مدينة النور » ؛ فماذا شعرت ، أنا القادم المشتاق من بلاد بعيدة مختلفة هى الشرق ، هى مصر الحبيبة ..؟..

ليس سهلا أن أستعيد ذكرى يوم مضى عليه أكثر من نصف قرن .. يوم وطئت قدمى أرض باريس .. لم يبهرنى أول الأمر

منظر هذه المدينة التي يسحرنا مجرد اسمها .. ما من رواية قرأناها فى الصغر إلا وفيها وصف لأضواء باريس يلهب خيالنا حتى كدنا نتصور بيوتها طوبة من فضة وطوبة من ذهب .. لا شيء من هذا رأيته .. إنما هي بيوت عادية رمادية اللون مائلة السطوح ، والمطر يتساقط رذاذا ، والسماء مكسوة بغمام أبيض ، وهواء بارد لافح لكنه منعش ، بدد فى الحال أثر الأرق فى تلك الليلة التى قضيتها فى القطار ، من ميناء مرسيليا إلى باريس .. ليلة لم أستطع النوم فيها لسبب شاءه سوء حظى ؛ فقد كان معى أشخاص عديدون ازدحم بهم ديوان العربة .. وجاءت جلستى ملاصقة لصبى فى العاشرة إلى جوار أمه .. كان كثير الحركة زائغ البصر دائم الهمهمة .. وأطفأ بعض المسافرين النور الساطع ، وأظلم المكان إلا من نور أزرق خافت ، نام عليه الجميع . وعلا الغطيط .. إلا ذلك الصبى المضطرب بجوارى . ولا حظت أمه ضيقى به، فأومأت إلىّ بإشارة ثم بهمسة فهمت منها أن هذا الصبى مصاب بلوثة جنون ، وأنها بسبيل إدخاله مصحة أو مستشفى للأمراض العقلية .. فما أن عرفت ذلك حتى وثبت لتوى مذعورًا من ديوان

العربة إلى الممر الضيق ، وصرت طول ليلى أتمشى أو أسند رأسى إلى نافذة .. وقد رأيت ذلك أسلم لى من البقاء بجانب صبى فاقد العقل ، قد يهيئ له جنونه أن يدخل أصبعه فى عينى أو يقرض بأسنانه أذنى .. وانتظرت زوال الليل بصبر نافد ، ولاح الفجر ، ورأيت لافتات عليها كلمة « باريس » .. فأيقنت بقرب الوصول .. ولم يمض بالفعل قليل حتى دخل القطار محطة باريس ، وأنا شبه مخدر من التعب .. وجاء حمال فحمل حقائبى إلى سيارة أجرة ، طلبت من سائقها أن يذهب بى إلى فندق فى الحى اللاتينى .. وجعلت طول الطريق أتأمل الأشجار الباسقة على جوانب الشوارع شديدة الاخضرار .. اخضرارها يبهر العين عين مثلى على الأقل ، فأنا لم تألف عيناى الاخضرار فى الشوارع .. أشجار تغتسل برذاذ المطر باستمرار .. كأنها حور حسان تحت دش حمام .. إن الطبيعة هنا تحب الشجر كما تحب الأم طفلها .. فهى تواليه بالتنظيف كل صباح . هنا كل شىء نظيف ، والماء يجرى دائما من تحت الأفاريز إلى بالوعات غير مرئية . والجو بدا فى نظرى فضى اللون .. كل شىء من حولى الآن فى لون الفضة

ولون الزمرد ، إن الطبيعة هي التي تتولى تزيين باريس ..

وأخذتني إغفاءة في السيارة لم أفق منها إلا أمام فندق وقفنا ببابه ؛ كان اسمه « فرنسا والشرق » ، وهناك أنزلوني في حجرة بالطابق الرابع صعدت إليها بسلم ضيق ، لم تكن المصاعد بالكثرة التي نعرفها اليوم . كانت الحجرة صغيرة ، ولكنها نظيفة ، مفارشها بيضاء ناصعة .. لم أعتد مثل هذه المفارش الناصعة شبه المنشاة .. فخجلت أن ألقي بجسمي المترب عليها فجلست في استحياء على مقعد صغير من الخشب .. ونصحني مدير الفندق أن أستأجر الحجرة بالشهر لا بالليلة ما دامت إقامتي طويلة ، فإن هذا أوفر لي ، وحسب لي الأجر الشهري بأربعمائة فرنك أي ما يقرب وقتذاك من أربعة جنيهات ، وهو مبلغ أستطيع دفعه ؛ فإن مقدار ما سيصلني شهريا من مصر لمعيشتي في باريس هو عشرة جنيهات . الأمر الوحيد الذي ضايقني هو عدم وجود حمام بالفندق كله ، وقالت لي خادم الطابق العجوز إن هذا حال أكثر فنادق الحي ، وعلى من يريد الاستحمام أن يذهب إلى حمام السوق . وعجبت أن تستحم هنا الأشجار بدش حمام سماوي ،

ولا يجد نزلاء الفنادق دش حمام عادى !.. وماذا عساى أصنع للوضوء ؟! إنى معتاد الصلاة .. وقد جئت من بلادى إلى أوروبا والإيمان ملء قلبى ، ومسجد السيدة زينب فى ذاكرتى ، وأنا قابض على دينى كالقابض على الجمر !.. وكيف السبيل إلى التطهر إذن والمرحاض هنا ليس به ماء ؟!.. ورأيت بجوار فراشى قارورة ماء للشرب مغطاة بكوب زجاجى ، فصرت قبل كل صلاة أحمل هذه القارورة معى إلى المرحاض . ولحتنى الخادم العجوز وأنا أذهب وأجئ فى اليوم مرات عديدة حاملا القارورة ، فسألتنى فى دهشة : « أخبرنى يا سيدى لماذا تحمل الماء دائما هكذا ؟!.. هل تخشى العطش وأنت تسير من حجرتك حتى المرحاض ؟.. إننا هنا لسنا فى الصحراء ؟!..» .

* * *

فى اليوم التالى سرت فى الحى اللاتينى على غير هدى . كان همى الأول أن أتخير مطعما للغذاء .. ولكن المطاعم هنا كثيرة تملأ الشوارع ، وعلى أبوابها بطاقات الطعام والأسعار .. ما هذا الرخص ؟!.. وهذا الخير الكثير ؟!.. هذا مطعم يقدم وجبة غذاء

كاملة من لحم وخضر وفاكهة وخبز وزجاجة نبيذ أو مياه معدنية بخمسة فرنكات ، أى نحو خمسة قروش مصرية !.. إلى هنا لن أشكو الجوع أبدًا .. لكن الأعجب هو غذاء العقل !.. ها هى ذى مكتبة كبيرة قد عرضت فوق الإفريز مجموعات من المجلدات القديمة التى أعرف قيمتها بأزهد الأثمان . كل مجلد منها بفرنك ونصف الفرنك ، وأحيانا ثلاثة فرنكات لمجموعة كاملة من مسرحيات : موليير ، وراسين ، وفولتير .. ولكنى قبل كل شىء أحتاج هنا إلى قاموس لغوى ودائرة معارف . واقتنيت من هذه المكتبة معجم لاروس الكبير فى جزأين ضخمين بما لا يزيد عن مائة فرنك . وهو ثمن زهيد لهذه الجامعة المتنقلة تحت ذراعى .. وكان هذا أهم شىء صنعته فى يومى .. وفى طريق عودتى إلى فندق لمحت فى حانوت للحلوى صندوقا كبيرًا من البسكوت الفاخر المحشو بالزبد والمربى ، فوقه بطاقة بسعر أذهلنى رخصه ، فمثل هذا البسكوت ما كان يخطر لى فى مصر أن أقدم على شرائه .. دخلت الحانوت وخرجت بالصندوق ، وفى حجرتى وكانت لها شرفة تطل على الشارع ، جلست واضعا الصندوق فى حجرى ،

و لم أفطن إلى نفسي إلا وقد أتيت على كل ما فيه من هذا البسكوت اللذيذ ، وأنظارى لاهية إلى استطلاع ما فى الشارع من حركة وما حولى من منازل .. واستلفت نظرى مبنى فى مواجهتى له مهابة ، فسألت عنه الخادم فقالت إنه « الكوليج دى فرانس » و لم تزد .. و لم أفهم منها المقصود . فلجأت إلى جامعتى المتنقلة « معجم لاروس » وكشفت عن « كوليج » فعثرت على ضالتى فى هذه السطور : « كوليج دى فرانس معهد أسسه فى باريس فرانسوا الأول عام ١٥٣٠ ميلادية ، خارج نطاق الجامعة ، شيده بناء على مشورة جيوم بوديه . والدراسة فى هذا المعهد تشغل كل مجالات المعرفة الإنسانية، والمحاضرات داخل هذا المعهد مفتوحة للجميع، ولا يعقد فيه أى امتحان، فهى دراسات تكميلية تطلب لذاتها ولكل طالب ثقافة .. » فالثقافة هنا فاتحة أبوابها بالمجان أو بأقل القليل من المال .. لم أكن أعرف شيئا عن جيوم بوديه هذا الذى أشار بإنشاء مثل هذا المعهد ؟.. من هو ؟ وما صناعته ؟.. ورجعت فى الحال إلى جامعتى « معجم لاروس » وبحثت عن الاسم وعلمت أنه « فيلسوف فرنسى

(١٤٦٧ — ١٥٤٠) وواحد من أوائل المتخصصين فى عصره فى الثقافة الإغريقية . وقد توسل بما له من حظوة لدى الملك فرانسوا الأول لإقناعه بإنشاء معهد « الكوليج دى فرانس » .. وغرقت فى التفكير .. ياللعجب !.. بل ياللرقى !.. رقى النفس والعقل .. أن يطلب الإنسان المعرفة لذاتها .. للسمو بها .. لا بغية نجاح فى امتحان أو حصول على شهادة أو وصول إلى وظيفة !.. وربما كان لدينا نحن أيضًا شيء كهذا فى يوم من الأيام .. بل ربما كان هذا مستوحى من أقدم جامعة فى العالم وهى « الأزهر » .. يخيل إلىّ أن الأزهر أيضًا فى أوج ازدهاره كان مفتوحًا هو الآخر لكل ألوان المعرفة فى عصره ، لكل من يطلبها لذاتها ، لا ابتغاء منفعة عاجلة من شهادة امتحان للارتزاق والامتهان . إن الشيخ الأستاذ وحوله الطلاب ما كان يجمعهم ويربطهم غير حب العلم وحده .. ما كان هناك جبر ولا إلزام .. من حضر حضر ، ومن غاب غاب ، والأستاذ فى مكانه يفرز علمه كما يفعل النحل الدؤوب دون نظر إلى من يتلقى العسل . ويكفى عقل واحد يواظب وينتفع ويتلقى عنه مشعل المعرفة ليبقى دائم التوقد متصل

الإشعاع .. أين ذهب هذا « الأزهر » الآن ؟ أما شبيهه فى باريس وهو : « الكوليج دى فرانس » فباق على الدوام!...

لم أكن بعد مهيأ من حيث اللغة والثقافة لأفهم وأنتفع بمحاضرات مثل هذا المعهد الحر .. كان يجب أن أقرأ وأن أغرق طويلا فى شتى الكتب أولا .. وها هنا الكتب زهيدة الثمن ، وصرت بالفعل أبدأ أول ما أبدأ عند نزولى إلى الشوارع بالمرور على المكتبات أغرف منها وأحمل إلى حجرتى .. إلى أن خطر لى الذهاب إلى حى مونمارتر .. هذا الاسم الذى طالما سمعت به من قبل ، مقترنًا بأسماء الفنانين البوهيميين والأوباش وأهل الفجور .. أما الأوباش وأهل الفجور فحاشا لله ، فأنا ولله الحمد مازلت محتفظًا بروحى الدينى .. وأما الفن فهذا هو الذى يهمنى ، إنى أريد أنا أيضا أن أكون هنا فنانا بوهيميا ، وقد كنت كذلك فى مصر قبل مجيئى يوم كنت أتسكع مع ملحن روايتى كامل الخلعى وأصدقائه المتصعلكين فى شارع محمد على وحى القلعة .. لماذا لا أذهب إذن إلى مونمارتر وأعيش هناك ؟!.. ونهضت ذات صباح وحزمت أمتعتى وركبت سيارة أجرة وقلت للسائق : إلى مونمارتر .. وفى

مداخلها أبصرت لافتة عليها كلمة فندق ، فبادرت أطلب من السائق الوقوف ، ودخلت بأمتعتي توا إلى الفندق ، فاستقبلني مديره ومساعده ، فلم أضيع وقتا وقلت لهما على الفور « أريد حجرة بالشهر ، لأن إقامتي عندكم مستديمة » .. فضحك الرجلان ضحكا أثار دهشتي ، ولما بدا لهما أني لم أفهم ، أشارا إلى سلم الفندق فأبصرت رجلا وامرأة يصعدان ورجلا وامرأة يهبطان .. ولم يظهر عليّ مع ذلك علامات الفهم ، وعندئذ طلب مني المدير ومساعده أن أقرأ رقعة معلقة بالحائط قرب الباب تفيد أن الحجرات في هذا الفندق تستأجر بالساعة .. عندئذ فقط أدركت أني وقعت في فندق مشبوه للمواعيد الغرامية ، لا للإقامة الدائمة العادية . فانصرفت خجلا وأنا أتعثر في أمتعتي ، والرجلان يضحكان مني ويسخران ويرددان : « بالشهر !.. يقول بالشهر !» ..

وعدت أدراجي إلى قواعدي بفندق « فرنسا الشرق » في الحي اللاتيني فهو حي على الأقل أعرفه .. وأعرف فيه موضع قدمي .. ومرت الأيام وأنا أزداد به ألفة ، واتخذت لي فيه مقهى

جعلته مكانى المختار ، كان على ناصية الشارع الذى به جامعة السوربون ، اسم هذا المقهى « دراكور ». لم يعد له وجود الآن ، ولكنه فى ذلك العهد كان له شأن ، وكان يؤمه القادمون الغرباء مثل الشاعر أحمد شوقى عندما كان يزور باريس فى الصيف ويجالسنا .. وقد أخبرنى فى عام ١٩٢٦ أنه يعد مسرحية عن كليوباترا . وطلب منى إخباره بالمسرحيات الفرنسية عن كليوباترا وأخبرنى أنه شاهد مسرحية لى تمثل فى عام ١٩٢٤ فى فرقة عكاشة التى يرعاها طلعت حرب .. كما أنى فى هذا المقهى عرفت صديقًا من أصدقاء العمر ، فريد الشخصية ، عجيب الأطوار .. لم ينقطع اتصالنا طوال الأعوام إلا بانتقاله إلى رحمة الله ؛ اسمه : « الدكتور سعيد » .. كان قد جاء من مصر ، لا للدراسة فى جامعة ، ولكن للتمرين العملى على الأبحاث البكتريولوجية فى معهد باستور .. حكيت له ما حدث لى فى مونمارتر ، فضحك هو الآخر وسألنى عمن يخدمنى فى فندق ، فلما قلت له إنها خادم عجوز ، صاح مشمئزًا : « أعوذ بالله !. فى باريس وتخدمك عجوز ؟!.. قم يا شيخ واترك فى الحال هذا

الفندق !» ونصحني بالانتقال إلى فندقه . ولما سألته عمن يخدمه هناك قال : « رجل عجوز ... » فصحت بدوري : « أعوذ بالله !» فابتسم وقال « انتظر .. اصبر ولا تقاطعني .. إنه فعلا رجل عجوز ولكنه كنز من الكنوز ! ». وروى لى حكايته مع هذا الرجل .. قال : إنه نزل هذا الفندق ليلا ، وفى الصباح استقيظ ودق الجرس طالبًا الفطور ، وهو يمنى النفس بخادمة حسناء تدخل عليه ، فلما دخل عليه هذا الرجل العجوز بشواربه صاح : « إخص على هذا الصباح الهباب ، رجل بشوارب أصطبح بوجهه فى باريس ! » وقام من فوره يحزم أمتعته ويترك الفندق .. وفهم الرجل وابتسم ، وأخبره أن الطابق الأعلى تخدم فيه خادم حسناء اسمها « جانيت » ، والطابق الأسفل حسناء اسمها « زيزيت » فزاده هذا نكدًا وقال : « وما الذى أوقعنى أنا فى هذا الطابق الملعون ، الذى يخدم فيه رجل بشوارب اسمه .. » وسأله عن اسمه ، فأجابه « غليوم ». فقال له : « انقل أمتعتى فى الحال يا غليوم إلى فوق أو إلى تحت !.. » فقال الرجل بابتسامة ماكرة : « لا داعى إلى انتقالك يا سيدى ؛ أليس عندك زرار

مخلوع فى قميصك لأرسل إليك جانيت بالإبرة والخيط كى تصلحه لك !، وهذه البقعة فى سترتك لا بد أن تحدث إن لم تكن حدثت من أثر سقوط ملعقة مربة أو زبدة أو نحو ذلك ، ولا بد إذن من أن أرسل إليك زيزيت لتنظفها لك .. ما رأيك فى كل هذا ؟!.. فانفرجت أسارير الدكتور سعيد وقال : « هذا كلام معقول !.. ووضع فى كفه خمسة فرنكات ضاعفت من همته ، فقال : إن بالطابق الأخير حسناء ثالثة اسمها : « أنطوانيت » سيأتى دورها . وفعلا طلب صديقى وقد ادعى المرض من يدلك له جسمه ، فقال له غليوم : إن هذا شغل أنطوانيت ، وأسرع يناديها .. وهكذا أصبح غليوم هذا لصديقى كنزًا من الكنوز ..

إلا أن صديقى الطموح لم يكتف بهذا ، بل طمع ذات يوم فى المديرة نفسها ، تلك التى تجلس فى صدر بهو الفندق بزهو وكبرياء ! وكانت امرأة ناضجة مليحة ، وفاتح كنزه الثمين غليوم فى أمرها ، فصاح فزعًا : « لا يا سيدى إلا هذه !.. » فنفحه بسخاء ، وصديقى هذا كان يتقاضى مرتبًا مجزيًا باعتباره طبيبًا مبعوثًا من الدولة ، فنشط غليوم بفعل المنحة السخية واتقد

ذكاؤه وتفتق فكره ، فبادر إلى ستارة النافذة الوحيدة فى الحجرة فجذبها جذبًا فانخلعت .. وقال : « سأنزل إلى المديرة وأخبرها أن ستارة نافذتك مخلوعة وعليها أن تأتى لمعاينتها والأمر بإصلاحها، فإذا دخلت حجرتك فعليك أنت بالباقى » .. وسألت صديقى الدكتور سعيد عما حدث بعدئذ ، فرفض أن يخبرنى واكتفى بأن قال لى: «فيما بعد أخبرك .. أما الآن الأهم هو أن تأتى حالاً إلى هذا الفندق لننعم معًا بفضائل هذا الكنز المدعو « غليوم » !.

و لم أبطئ بالطبع .. فلم تمض ساعة أو أقل حتى كنت أحمل أمتعتى إلى هذا الفندق البهيج . وما كدت أدخل البهو حتى استقبلنى الصديق باسمًا قائلا : « اختر لك ما يحلو .. تسكن طابق جانيت أو طابق زيزيت أو طابق أنطوانيت ! » فقلت له : « بل طابق غليوم وهو يوزع علينـا الخيرات ، تحت إشرافك طبعًا ، وقد تركت لكرمك وسخائك مهمة المنح والعطاء باسمى واسمك !.. » فقال : « أمرك !.. » ونادى غليوم وأمره بحمل أمتعتى إلى حجرة بطابقه . وصعدت لأنظم شأنى فى مسكنى الجديد ، على أن ألحق بصديقى بعد قليل فى مقهى داركور .

وما أن استقر بى المقام فى حجرتى حتى نهضت أفتح حقائبى وأخرج ملابسى ثم موسى الحلاقة وأحلق ذقنى أمام مرآة فوق مائدة عليها طست واسع من الخزف الملون وأبريق ماء كبير لغسل الوجه . فمثل هذه الفنادق لم يكن بها فى ذلك العهد من أوائل العشرينات حنفيات الماء الجارى فى الحجرات كما هو العهد الآن .. وما أن انتهيت من حلاقة ذقنى وأعجبنى شكلى حتى بادرت إلى زرار قميصى فخلعته ، ثم ناديت غليوم وأشرت له إلى القميص قائلا « الزرار انخلع ! » .. فقال : « لحظة واحدة يا سيدى » .. وانصرف سريعًا وتركنى أمنى النفس برؤية جانيت أو زيزيت أو أنطوانيت .. وعاد غليوم فعلا بعد لحظة ولكن بمفرده ، وفى يده إبرة وخيط . فصحت به : « ما هذا ؟ » فقال متعابطا : « ألم تطلب ذلك ؟! » قلت له : « بل طلبت جانيت أو زيزيت !.. » فابتسم . لكنه عاد فتجهم وهرش رأسه الأصلع قائلا : « هو صديقك قال لك ؟! » فأجبته « طبعًا » فعاد إلى هرش رأسه بلكاعة ، وفهمت مراده وأسرعت إلى محفظتى وأخرجت منها خمسة فرنكات وضعتها فى كفه ، فتهلل

وجهه ، ودب فيه حماس مفاجئ ، وقال : « شكرًا يا سيدى لحظة واحدة ! » وخرج مسرعا .. وجلست أنا على مقعد أنتظر وكل أنظارى إلى باب الحجرة .. وتذكرت المحفظة فى يدى ففتحتها ونظرت فيها ثم أعدتها إلى جيبى مغتما وقد ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، وجعلت أقول لنفسى : لعنة الله على العجلة واللهفة ، أما كان الأجدر انتظار صديقى سعيد ليتولى هذه الأمور ؟! » ..

* * *

لم يكن هذا اللهو والعبث ليصرفنا على النظر إلى الوجه الآخر لباريس ، وجه العلم والمعرفة والحضارة . ويبدو أن هذه الدفعة كلها التى ارتادت أوربا عقب الحرب العالمية الأولى وأوائل العشرينات كانت امتدادًا لبعثة رفاعه الطهطاوى تدرك بالغريزة ، دون تدبير أو تفكير أو تخطيط مسبق ، أنها هى المنوط بها وضع أسس نهضة فكرية وعلمية سوف يقوم عليها البناء الحضارى لبلادنا فى ثلاثين أو خمسين سنة قادمة . وكان صديقى الدكتور سعيد من بين هؤلاء الرواد فى فرعه الذى تخصص فيه .. وكان

برغم عبثه هذا مجدًا فى عمله وأبحاثه ، محترمًا بين زملائه من علماء المعهد ، إلى حد أنهم أرادوا ضمه إليهم بمرتب فى المعهد ، ولكنه رفض الانسلاخ من بعثته والابتعاد عن خدمة بلاده .. وعلى الرغم من التحرر الفكرى الذى كان يحيط به والتعمق العلمى الذى كان يزاوله فإن إيمانه الدينى كان راسخًا لا يمكن زعزعته مثل ، الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى كان شديد الإعجاب بباريس مع شدة رسوخ فى الدين . وهى سمة بارزة فى مفكرى ذلك العصر .. وقد كنت أنا منهم فى أول الأمر ، لم يكن الانغماس فى بيئة أهل الفن فى مصر بمؤثر فى العقيدة ، على العكس ، إن الفنان دائمًا أقرب إلى الإيمان . إن حصولى على ليسانس الحقوق وتسجيل اسمى فى جدول المحامين واشتغالى بالمحاماة فى ذلك العهد إلى جانب تأليف الروايات كان كفيلا بأن يجنبنى كما جنب غيرى متاعب القلق الفكرى . ولكنى قطعت هذا الاتجاه الذى بدأت السير فيه بنفس مطمئنة لأحضر إلى بلاد تضطرب فيها الأفكار ويسودها القلق فى أعقاب حرب شملت العالم كله لأول مرة فى تاريخ البشر . كان من برنامجى أن أحضر

لدكتوراه الحقوق إلى جانب متابعتى لهوايتى الفنية . وقد اخترت القانون العام ، وهو أقرب إلى الدراسات الإنسانية التى تهمنى لا تصالها بالفن ، وهى تشمل الاقتصاد السياسى والتشريع الصناعى وتاريخ المذاهب الاقتصادية من أرسطو حتى كارل ماركس . وقد جرنى أرسطو إلى دراسة الفلسفة اليونانية ، وكارل ماركس إلى هيجل والفلسفة الألمانية ، وكان التركيز فى ذلك الوقت على ماركس بالذات للحدث العظيم الذى شغل أوروبا وقتئذ ؛ وهو ثورة روسيا واهتمام مفكرى العالم بهذه التجربة الإنسانية الحية وما تحمل فى طياتها من آمال .. وكان أملنا فى مصر يومئذ هو الخلاص من الاحتلال الإنجليزى .. فكان كل نشاط فكرى أو فنى أو سياسى أو اجتماعى يقوم على أمل التحرر من نير احتلال بريطانيا العظمى لبلادنا .. فكان من بين ما استهوانى فى ماركس وقوفه ضد الإمبريالية ..

على أن قراءاتى الخاصة كانت أشمل ، والنهم إليها متجدد ، لأن المعرفة أمامى فى باريس ملقاة فى الشوارع . وكلما تسكعت فى طرقاتها قادتنى قدمى إلى مكتبة تلقى بكتبها على الأفاريز . وعلى

إفريز شارع « سوفلر » وجدت فى مكتبة اسمها « دلاجراف » كتابًا زهيد الثمن فى تاريخ الفلسفة « قضاياها ومذاهبها » فى أكثر من ألف صفحة تأليف بول جانيه وجبريل سياى الأستاذين بجامعة باريس . إنها الطبعة الحادية عشرة الصادرة حديثًا فى عام ١٩٢٠ دفعت فيها عشرة فرنكات فقط ، أى ما يساوى عشرة قروش مصرية !.. وعدت بها إلى حجرتى .. بمثل هذا الكتاب فى حوزتى استطعت أن أكون فكرة شاملة عن مجرى التفكير البشرى .. ولكن الأفاريز لا تكف عن عرض الكتب فى مجرى لا ينقطع سيله ، سيل ماء المطر الجارى من تحتها . هذا هو فولتير وروسو وكل أعلام عصر التنوير بفرنكات معدودات . ولكن الذى حدث فى عقلى كان شيئًا مخيفًا ؛ لكأنى فتحت نافذة فى رأسى هب منها إعصار هائل قلب كل شىء .. وذهبت إلى صديقى الدكتور سعيد أفاجئه بقولى : « أجبنى حالاً هل تؤمن حقًا بالجنة والنار ؟! » فحملق فى وجهى كمن ظن أنى شربت وأكثرت من الشراب ! ولكنى لم أكن قد ذقت الشراب بعد ، لا أنا ولا هو ، وقد ظل هو إلى آخر يوم فى حياته لم يذق الخمر . ولما كررت عليه

السؤال اكتفى بأن قال لى : « هل حصل فى عقلك شىء ؟! » فقلت لـه بلهجة الجزم : « حصل كـتير !.. » وألححت فى السؤال ، وأصر هو على الصمت وعندما أفهمته أننا فى مرحلة يجب أن نطرح فيها كل شىء على العقل ليطمئن منا القلب ، رفض الخوض فى مثل هذه الموضوعات .

ولكنى كنت فى بيئة تفكير ، ولأول مرة أشعر بشىء خطير حدث فى حياتى ، هذا الانتقال السريع من عصر إلى عصر : كنت كسمكة النيل الهادئ خرجت فجأة إلى موج البحر المتلاطم ، خرجنا من جو فكرى راكد إلى جو تبرق فيه الأفكار وترعد ، وتتخذ فيه العقول صورة الخيول ، تركض ركضا فى كل حلبة من حلبات النشاط الإنسانى ، كل حاجز تتخطاه ، وكل عقبة تقفز من فوقها ، والركود عندها هو الموت .. إذن كنا أمواتًا ونحن لا نشعر ، وأحسست بالعقل يتحرك ، كالمهر حديث العهد بالجرى ، فرح بحركة سيقانه يشب عليها ويحاول الجرى مع الخيول .. ولكن صديقى الدكتور سعيد يريد أن يضع أمامى حاجزًا لا ينبغى أن أتعداه : هذه الموضوعات التى لا ينبغى المناقشة

فيها . وعندما قلت له : « وما الضرر ما دمنا مؤمنين ؟ فلنناقش كل شيء بحرية ما دام الأمر سيؤدى بنا فى النهاية إلى الإيمان » . فلم يُرق له كلامى .. وقال بحسم : « نتناقش ؟! اسكت بلاش كفر !! » وأراد أن يغير الموضوع بسرعة ..

حقا إن الإيمان مريح ، ولكن من شيمة العقل أن لا يستريح .

ولكى يضع سعيد حدًا لما سماه تخريفى أخذ يغرينى بالذهاب معه إلى مكان اكتشفه يطلع فيه القمر بدرًا متألقـا فى وقت الظهيرة .. وقادنى من يدى إلى مطعم فى آخر الحى ، دخلناه وجلسنا إلى مائدة من موائده اختارها بعناية .. كانت بالقرب منا فتحة فى الحائط كالطاقة أو الكوة أو النافذة الصغيرة تؤدى إلى المطبخ ، وتخرج منها أطباق الطعام . ونبهنى صديقى إلى هذه الكوة لأن منها سيظهر البدر المكتمل بين لحظة وأخرى .. وفعلا لم تمض لحظة حتى ظهر فى الكوة وجه حسناء كأنه البدر ضياء .. إنها الطباخة الجميلة بقبعتها العالية البيضاء .. الحق أننا لم نستطع أن نحول أنظارنا عنها طول الوقت . كان هذا المطعم متخصصًا فى الأطعمة الفرنسية القديمة ذات الأسماء الغريبة فلم نفهم منها شيئًا

غير كلمة « كوستليته بالبطاطس » : فصرنا نحضر كل يوم ونجلس إلى نفس المائدة ، ونرصد طلوع القمر من خلف الكوة ، ونطلب الصنف الوحيد الذى لا نعرف غيره وهو الكوستليته بالبطاطس وأنظارنا مسددة إلى الكوة ، وعيوننا معلقة بأشعة البدر المنير . وتكرر هذا كل يوم : نفس صنف الأكل ونفس التطلع إلى البدر ، إلى أن كان يوم سبقت فيه صديقي سعيد إلى دخول المطعم وتخلف هو ليشترى علبة سجاير ، وجلست وَحدى إلى المائدة المعتادة أنتظره ، وأتطلع إلى بدرنا فى الكوة . وإذا بصاحبة المطعم وكانت امرأة مسنة بدينة ضخمة قوية تجلس دائمًا أمام الخزانة على مقربة منا تلاحظنا من طرف خفى فيما يظهر ، وترقب أحوالنا دون أن نشعر ، قد نهضت من مكانها وقصدتنى قصدًا وأمسكت بذراعى وأرادت أن تجرنى إلى المطبخ .. وأنا أقاوم وأتشبث بكل ما تقع عليه يدى ، وهى مصرة على جذبى وشدى مرددة كلمة « تعال .. تعال » وجاء صديقى سعيد ورآنى على هذا الحال .. وما كدت أنا أراه حتى صحت به مستنجدا قائلا باللغة العربية : « الحقنى يا أخى .. هذه الولية

صاحبة المطعم ضبطتنا متلبسين بمغازلة الطباخة وتريد جرى إلى المطبخ للتحقيق ! » فاستشاط الدكتور سعيد غضبًا ، وهجم على المرأة الضخمة وخلصنى منها وقال لها بلهجة عنيفة : « ما هذه السخافة ؟. ماذا فعلنا ؟ هل نحن قبلناها أو حضناها ؟!. لا قبلة ولا حضن .. مجرد مغازلة بريئة من بعيد لبعيد !.. » ولم يبد على المرأة أنها فهمت شيئًا ، فقد ظهر على وجهها الدهشة والاستغراب ثم جعلت توضح موقفها قائلة إنها لاحظت أننا لا نطلب كل يوم غير صنف واحد بعينه هو الكوستليته بالبطاطس ، فأدركت ، ونحن غرباء كما يبدو من هيئتنا ، أننا لا نعرف ما فى المطعم من أصناف أخرى قد تروق لنا إذا شاهدناها . وأخذتها الرأفة بنا فأرادت أن تدخلنى المطبخ لأرى بنفسى ما فى الأوانى والحلل والصوانى من أطايب الأصناف والألوان وأنتقى منها ما يحلو لنا .. وهذا كل ما فى الأمر . وهى لا تدرى لماذا نرفض ونقاوم ونغضب ؟!.. فضحكنا ، وأفهمناها أننا كنا نظن المسألة لها صلة بمغازلة الطباخة الحسناء . فضحكت بدورها وقالت إنهم فى باريس لا يقيمون وزنا لذلك ، وإنه يسرها أن يكون فى محلها

المتواضع شيء يثير الالتفات . وحكت لنا حكاية رجل مرت أمامه امرأة جميلة فرمقها بنظرة إعجاب مهذبة ، فغضبت المرأة وقالت له لماذا ينظر إليها هكذا ؟ فأجابها على الفور : وهل تريدين يا سيدتى أن تأتى وتذهبى دون أن يكون لوجودك ما يدعو إلى الاهتمام ؟! قلت لصديقى سعيد المهم أن نكون مهذبين .. قال : لك فى الشرع نظرة واحدة ، لاحتمال أن يكون القادم أسدًا !.. ولكن النظرة الواحدة هنا فى باريس لا تكفى .. لاحتمال أن يكون القادم أسودًا من الحسان !.. وضحكنا وعجبنا لما بدا علينا من خوف وارتباك لمجرد الظن بأن صاحبة المطعم قد ضبطتنا نغازل الطباخة عن بعد بالنظر .. إنها رواسبنا فى مصر من قديم وقد جئنا بها .. ففى بلادنا اليوم حجاب .. ومن يصادف فى عربة حنطور رجلا وامرأة ، حتى وإن كانا زوجين ، فإن الشارع كله يجرى خلفهما متصايحًا بمختلف الألفاظ البذيئة وكأنها جريمة قد ضبطت ..

كانت المرأة فى فرنسا وقتئذ تجتاز مرحلة جديدة . ربما على أثر هذه الحرب العالمية الأولى ، واشتغال المرأة فى ميادين القتال

بالتمريض والترفيه ونحو ذلك ، وفى ميادين العمل فى المدن بما كان يقوم به الرجال الغائبون فى الجبهات . كانت المشكلة هناك هى نزوع المرأة إلى كسر قيودها الاجتماعية . فبدأت تظهر وخاصة فى مجالات العمل نساء قصصن شعورهن كالذكور مما وصفه الشاعر العربى القديم بقوله « غلامية الشعر مطمومة ». ومما أطلقوا عليه هنا فى باريس وقتئذ كلمة : « ألاجارسون ». ولكن المسألة لم تقف عند حد المظهر .. بل كان المطلب هو الاستقلال ، استقلال المرأة بحياتها الخاصة وجسدها وسلوكها ، أسوة بما للرجل من استقلال وحرية فى التمتع بحياته وبجسده لا يجده من العرف والتقاليد ما يحد المرأة ، فهى كما كانت تقول تعمل عمله ولا تتمتع بحريته .

وقام كتاب يعبرون عن هذه الحركة ، كما نهض روائيسون يصورون هذه الشخصية الجديدة للمرأة .. من ذلك رواية : « لا جارسون » ثم رواية « جسدك لك » وهما من تأليف كاتب جرئ هو « فكتور مرجريت » فقامت عليه القيامة وخاصة من الأوساط البرجوازية العريقة فى تمسكها بالتقاليد مما أدى إلى طرده من عضوية الأكاديمية الفرنسية . وكان لذلك ضجة سمعناها هنا

كلنا . كل هذا فى وقت كنا نطالب نحن فيه بالاستقلال والحرية ، لا للمرأة المصرّية التى كانت لم تزل محجبة ، تشارك فى الحركة الوطنية ومظاهراتها وجسدها ملتف بالملاءات والحبرات ووجهها مسدلة عليه البراقع واليشامك ، بل الاستقلال والحرية للأمة كلها من وطأة الاحتلال الإنجليزى .. وكان القلم الجرىء الذى نهض فى فرنسا لنصرتنا هو قلم « فكتور مرجريت » هذا أيضا ، فقد كتب كتابًا سماه « صوت مصر » صدّره بمقدمة مشهورة لكاتب فرنسا العظيم « أناتول فرانس » .. وكان وقتذاك من أصعب الأمور أن يكون « صوت مصر » مسموعا فى عهد بلغت أوروبا فيه أوج قوتها وتألق نهضتها ، ومصر فى بداية يقظة تشعرها بذاتها وشخصيتها التى لم تكن قد وضحت ..

كانت أول امرأة شاهدتها فى باريس تمثل هذه النزعة النسائية الجديدة لذلك العصر الحديث هى عاملة التذاكر بمسرح الأوديون . أطلت علينا من شباكها الصغير بشعرها الأشقر المقصوص القصير وكان المنظر غريبًا على مثلى .. فاشتقت أن أحادثها ، ولا بد لذلك من أن أدعوها إلى العشاء ، ولكن كيف

السبيل إليها ودون المثول بين يديها صف طويل من زبائنها الراغبين فى حجز الأماكن بهذا المسرح ! وهى قلما تكون منفردة طوال ساعات العمل .. وإذا أنا وصلت إليها فماذا أستطيع أن أقول لها فى دقائق خاطفة ؟.. خطر لى أن أكتب لها ما أريد قوله فى شبه مسرحية صغيرة ، فاستعنت بالله وبقواميسى ومعاجمى على كتابة هذه المسرحية بلغة فرنسية بسيطة ، وسميتها « أمام شباك تذاكرها » جعلتها بطلتها وأنا زبون عابر يغازلها بأدب ويدعوها بلطف إلى العشاء .ووقفت فى الصف الطويل ، وما أن بلغت شباكها حتى وضعت أمامها المسرحية ، وانصرفت فى الحال. ودهشت هى بالطبع لذلك الذى طلع إليها من بين الناس لا ليطلب تذكرة ، بل ليترك لها مخطوطًا .. وعدت إليها بعد يوم ، وكانت قد قرأت المسرحية فابتدرتها بقولى : « أنا المؤلف ». فابتسمت ثم ضحكت وسألتنى عما أريد ؟.. فقلت لها : إخراج نهاية المسرحية : أى الدعوة إلى العشاء .. فترددت .. ثم قبلت فى النهاية .. ونشأت بيننا علاقة .. دامت أسبوعين على أتم وجه .. ولكن كل شىء بدأ يتغير بعد ذلك ؛ فقد تبين لى أن هذه العلاقة

نشأت فى غفلة من الزمن أو على الأصح من عشيق لها كانت معه على خصام ، فلما تصالحا لم يعد لى مكان .. وأغضبنى ذلك غضبًا شديدًا ، وتمنيت لو أظفرنى الله بهذا العشيق الفرنسى الأنيق لأشبع فيه لكمًا ولطمًا .. وفى ذات يوم كنت أجلس فى مجلسى المختار بقهوة داركور وإذا بى ألمح فى الطريق رجلا كانت له فى ملاهى عماد الدين بالقاهرة فى أوائل العشرينات سطوة وشهرة .. سمعت عنه وعرفته معرفة عابرة لاختلاطى فى مصر بهذه الأوساط ؛ كان أحد ملوك الليل المعروفين بشدة البأس .. وكان قوى البنية ضخم العنق كالمصارع .. يدخل الملهى فترتج أركانه .. وإذا لم يدفع له أصحابه الإتاوة جعل عاليه أسفله .. ولما ضجت الحكومة من أفعاله نفته خارج البلاد ، فجاء باريس واشتغل بها عاملا يحمل البراميل .. كان ذلك تقريبًا فى نفس الوقت الذى جاء فيه أيضًا الشاعر الشعبى بيرم التونسى ، جاء منفيًا هو الآخر ، وإن اختلفت الأسباب . فالفتوة البلطجى كان يحطم الملاهى بأفعاله ، والشاعر الشعبى كان يحطم فساد الدولة بأقواله . وكلاهما كان فى نظر الحكومة مستحقًا لنفس الجزاء وهو

النفى !.. ولم أصادف بيرم التونسى فى باريس ، فقد كان كما سمعت يعمل فى الضواحى بأحد المصانع أعمالا يدوية صغيرة ، ولم أره قط فى الحى اللاتينى . أما صاحبنا الفتوة ملك الليل ، وكان اسمه « يوسف شهدى » فقد ظهر فى الحى ذلك اليوم ، وما كدت أبصره حتى نهضت خلفه فى الحال واستوقفته وأجلسته على القهوة وطلبت له كوبًا من البيرة . ولما استوثقت من اطمئنانه إلىّ ، صارحته بقولى له : « أنا طالب منك شغلة بسيطة » فقال : « أنا خدامك » قلت له : « كل طلبى إنك تضرب لى واحد علقة سخنة » .. فما كاد يسمع ذلك حتى انتفض واقفًا وهو يصيح بى : « كله إلا كده !.. اعمل معروف سيبنى فى حالى ، احنا هنا مش فى مصر ! سلام عليكم ! » وتركنى وانصرف ولم أر له وجهًا بعد ذلك أبدا ..

وغمرتنى الحياة فى باريس بدواماتها المختلفة ، فقد كان للحرب العالمية الأولى من الآثار ما يصيب الإنسان بالدوار ، فقد كانت هذه أول حرب بشرية يشترك فيها العالم كله بالأعباء العسكرية والمدنية ، عكس الحروب الماضية كلها حيث كانت لا تقوم

إلا بين جيوش فقط فى ميادين بعيدة ، لا يكاد يشعر بها الناس ، أما هذه الحرب العالمية فكان العالم كله والشعب كله والمجتمع كله يشعر بها ويشترك فيها وينتج عنها تبعًا لذلك من الأفكار ما يقلب الأوضاع فى كل مجال من مجالات النشاط البشرى . ففى الأدب والفن شاهدت بنفسى مولد السيريالية وثورتها ضد المنطق العقلى ، وكان زعماؤها من الشباب المقترب منا وقتئذ فى السن . كما عشت فى جو نخبة من الفنانين المجددين المجاهدين ضد العنت التقليدى والرفض العام فى تلك الأيام . كانوا فى الفن التشكيلى بيكاسو ، وفى الشعر كوكتو ، وفى المسرح بيتوييف . وأحيانًا كانوا يلتقون فى عمل فنى واحد فى صورة مسرحية . وكان الفقر والصعلكة والفكر المتحرر إطارهم الذى يتحركون فيه .. وكنت مثلهم أريد أن أتحرر بفكرى وأن أحاول فهم كل ثورة جديدة فى الفن والفكر ، وكانت حياتى قريبة من حياتهم من حيث الصعلكة والفقر ونهم المعرفة .. كنت قد سكنت يومئذ فى ضواحى باريس حيث كانت الإقامة الكاملة مع المأكل والمشرب لا تكلفنى أكثر من ستة جنيهات فى الشهر ، يدخل فيها أجرة تذكرة القطار الذى

كان ينقلني من الضواحي إلى باريس كل يوم . كانت المسافة أقل من نصف الساعة ، وكان القطار يسير بالفحم ويتطاير دخانه الأسود الكثيف وينتشر فوق العربات .. وكان للعربات دوران ؛ أحدهما علوى مكشوف اشتقت أن أصعد إليه ، وصعدت مرة ولم أجد معى أحدًا ، ولما وصلت إلى المحطة ونزلت من القطار وجدت الناس يحملقون فى وجهى ، فنظرت فى مرآة بفناء المحطة فإذا بى قد انقلبت زنجيًا من دخان الفحم المتطاير .. ولكن هذا السكن البعيد كان يضايقنى فى السهر ؛ كنت أخرج من مشاهدة مسرحية أو حفلة موسيقية لأكمل السهرة فى مقاهى الصعاليك من الفنانين فإذا بى يفوتنى آخر قطار وينصرف رواد القهوة ولا يبقى غيرى ، ويريد أصحاب القهوة إغلاقها أو تنظيفها استعدادًا للصباح ، فلا أجد مناصًا من الانصراف ولكن إلى أين ؟ رأيت ذات ليلة أن خير مكان آوى إليه حتى الفجر هو منزل من منازل حى سان دنيس ، تلك المنازل ذوات المصابيح الحمراء على أبوابها . فإن قاطناتها من العاهرات الرخيصات لا يمكن أن يرفضن طارقًا فى أى وقت من أوقات الليل .. كانت الساعة قد قاربت

الخامسة صباحًا ، وطرقت الباب وإذا بالتى فتحت عجوز شمطاء فى يدها مكنسة ، تكنس بها المنزل وكادت تكنسنى أنا أيضًا وهى تقول : « اذهب .. أغلقنا ، والبنات دخلن للنوم ! » وسدت فى وجهى الباب ، وسرت فى الطرقات مع عربات الرش حتى موعد قيام أول قطار .. فذهبت إلى المحطة ، لأعود إلى مسكنى وأنام ، بينما أفواج العمال يخرجون نشيطين إلى المصانع . ولكنى عندما أنام نهارى فإنى أسهر ليلتى كلها فى قراءات مستمرة . ليلة كاملة للصعلكة وليلة كاملة للقراءة . وكان رأسى قد امتلأ حتى كاد ينفجر ، وكنت أحيانًا أكلم نفسى وأحاورها فى مختلف الأفكار والاتجاهات والثقافات وقضايا ذلك العصر المولود حديثًا من رحم حرب جبارة .

وكان إلى جانب انقلابات الفن والأدب انقلابات أخرى فى المجال الاجتماعى الاقتصادى . فقد هزت التجربة الثورية الروسية أفئدة المثقفين وعقولهم إلى حد أصبحت فيه كلمة « الشيوعية » ، الرداء الزاهى للمثقف قبل العامل . وأراد كل كاتب مرموق أن يذهب إلى روسيا ليرى بنفسه المعجزة . فى فرنسا كان « أندريه

جيد » يتأهب لذلك ، وفى إنجلترا « برناردشو ». ولكن مصر المسدل فيها الحجاب ، لا على وجوه النساء فقط بل أيضًا على عقول الناس ، لم تكن تعيش إلا بأمل واحد هو : الخلاص من وطأة الاحتلال البريطانى . وكانت تبحث عن نفسها الضائعة وعن شخصيتها المدفونة تحت رمال الزمن . ولم يكن لها بعد كيان سياسى . فلما اضطرت بريطانيا تحت ضغط الثورة المصرية عام ١٩١٩ إلى بعض التساهل رضيت أن يكون لمصر شيء من مظهر الدوله . فلقب السلطان فؤاد بالملك وأصبح له سفراء فى الخارج . وكان لنا سفير فى باريس هو أحد أفراد أسرته . وقرر الملك فؤاد أن يسافر إلى الخارج ليعلن إلى العالم وضعه الجديد . فجاء إلينا فى باريس فى زيارة رسمية . وقد أخطرونا يومئذ ، — نحن المصريين المقيمين فيها — أن نستعد لاستقباله فى محطة الوصول . وكانت محطة صغيرة فى مدخل باريس فرشت بالبساط الأحمر . وأوصونا أن نأتى كلنا بالطرابيش .. وكانت حيرة لنا ، فأكثرنا لم يكن يحتفظ بطربوشه فى باريس ، فصرنا نجرى هنا وهناك نبحث عن طرابيش .. وكان منظرنا مضحكا ؛ فمنا من

كان طربوشه واسعًا يصل إلى أذنيه ، ومنا من كان الطربوش ضيقًا فى نصف رأسه ، ومنا من لم يجد غير طربوش مغربى بلا زر .. المهم أن المحطة امتلأت بالرؤوس الحمراء . ونزل الملك فؤاد من القطار بعظمة الملك الشرق ، وشواربه مدهونة بالكوزماتيك مبرومة مرفوعة إلى أعلى يقف عليها الصقر ، واستقبله كبار رجال الدولة الفرنسية وساروا به وهو يحيينا بإشارات من يده ، إلى أن ابتعدوا عنا ، فتفرقنا من المحطة ونحن نخلع طرابيشنا المضحكة ونحاول إخفاءها ، ما عدا واحدًا احتفظ بطربوشه وكان طربوشًا حقيقًا ملائمًا لرأسه ولم يستعره من أحد ، كان ذلك الرجل هو صديقي الدكتور سعيد .

لم أكن قد رأيته منذ أسابيع .. كان كل منا فى واد من أعماله ومشاغله ، فلما التقينا فى المحطة تصافحنا بشوق وذهبنا معًا إلى القهوة المعتادة « داركور » . وأخذنا فى الحديث ، وأحاديث صديقي سعيد تدور أكثرها حول النساء ، والباقى حول الدين ! وهو بإيمانه الذى يشبه إيمان العجائز ، لا يناقش فيه . لقد دُمغ الدين كل حياته .. فلم يذق الخمر ولم يعرف القمار ولم يفارق

القرآن . ولا أدخل معمله إلا وأجد المصحف مفتوحًا إلى جانب أنبوبة الاختبار بما فيها من بكتريا ومكروبات .. إلا النساء ، فلا يجد فيهن حرامًا ولا ضلالا !.. وما أن فتح الحديث حتى بادرنى بخبر امرأة لم ير فى باريس كلها أجمل منها وجعل يصف لى محاسن جسمها ، وهى أحيانًا نصف عارية وأحيانًا فى غلالة حريرية رقيقة .. ولما سألته : أين رأى كل هذا ؟ قال فى الفندق المواجه لفندقه . فى حجرة بهذا الفندق ، أبصر طيفها مرة من خلال النافذة المفتوحة ، ثم جعل يراقبها وهو مأخوذ بهذا الحسن والجمال أيامًا طويلة !.. إنها ليست وحدها ، لها عشيق لا يفارقها ، إنه شاب يابانى ، أصفر الوجه قمىء القامة ، وما الذى أغراها فيه ؟! النقود يا صاحبى ، النقود !.. لم يفت سعيد بالطبع أن يتحرى عن هذا الشاب ويعجم عوده فعرف أنه مبعوث من دولته ويتقاضى منها مبلغًا محترما لا ليدرس فى جامعة أو يلتحق بمعهد ؛ بل ليقوم بمهمة عجبنا لها : هى أن يبادر بترجمة أحدث المؤلفات التى تظهر فى فرع معين من فروع المعرفة إلى لغة بلاده اليابانية ويرسل ذلك فورًا إلى دولته التى تعنى بذلك فى اليابان ، و لم يذكر

لى سعيد ما هو نوع هذا الفرع من المعرفة ؛ هل هو الأدب أو العلم أو الفن ؟.. فقد كان الذى يهمه فى الأمر كله حكاية المرأة . أما أنا فقد فكرت طويلا فى ذلك : لا بد لهذا المبعوث من زملاء كثيرين لكل علم وأدب وفن ولكل لون من ألوان الحضارة الأوربية ، منتشرين لا فى فرنسا وحدها ، بل ربما فى كل أنحاء العالم المتحضر . إن اليابان تريد أن لا يقوم حاجز بينها وبين ما يحدث فى عقل أوروبا والعالم المتحضر فى أى لحظة من اللحظات . واليابان هذه تفصلها عن أوروبا قارات واسعة ومحيطات شاسعة ، فى حين أننا فى مصر نقعد مواجهين لأوروبا على الشاطئ الآخر من هذه البحيرة المسماة بالبحر الأبيض المتوسط . ولولا هذه البحيرة أو البحر الصغير لكنا معها وكانت معنا قطعة واحدة . نحن إذن أولى من غيرنا بأن نعرف كل ما يدور داخل ذلك العقل المتحرك بالأعاجيب أمامنا على الشاطئ الآخر . حدث يوما مثل ذلك على نطاق مصغر جدًا ، يوم جاء هنا فى باريس شيخ معمم لم يغلق نفسه فى حجرته ويقفل عقله فى عالمه ، بل طمع فى أن يفتح مداركه كلها على معارف العالم الواسع : اسمه رفاعه

الطهطاوى ، ترجم ونقل ما استطاع ترجمته ونقله من آثار الحضارة العصرية . ولكننا كلنا نحتاج إلى مئات من أمثال رفاعة الطهطاوى ، كما كنا نحتاج إلى الخطة المنظمة وإلى الاستمرار الدءوب ، وإلى اختيار العناصر التى يمكنها تشرب الحضارة في مختلف نواحيها وملاءمتها مع خير ما نحتفظ به من مقومات شخصيتنا الخالدة ومن تراثنا القديم الصالح . وكان من بين زملائنا فى باريس يومئذ من تنطبق عليهم هذه الصفات . كما كان من بينهم نفر سجن نفسه فى علم الزمن السالف وحده وهم « السلفيون » ممن اعتادوا الاكتفاء بالعالم القديم وحده دون علم بما حدث فى العالم الجديد . وكان من أثر هذا العلم المحدود هزيمة المماليك بسيوفهم أمام نابليون بمدافعه ، كما لبثوا يجهلون وجود « المطبعة » التى نشرت نور المعرفة فى أوروبا مئات القرون قبل أن نفطن نحن إلى وجودها ، مستمرين فى طريقة « النسخ » القديمة المحدودة الأثر .. كذلك كان منهم من اكتفى بتلك التخصصات الدراسية أو المهنية التى جاء من أجلها ، فلم تبصر عينه شيئًا آخر مما حوله من رقى فكرى وفنى . وكان صديقى سعيد من هذا

النوع الأخير ، نبغ فى تخصصه إلى حد جعل معهد باستور يعرض عليه كما قلت وظيفة ثابتة فيه بمرتب طيب على الرغم من جنسيته الأجنبية ، ولكنه رفض الانسلاخ من بعثته ، والإقامة فى بيئة غير بيئته ، وهو الرجل الذى لا يستطيع كما قال لى أن يعيش طويلا بعيدًا عن المساجد والمآذن . فهو منذ الصغر ، يوم كان غيره من الغلمان يقرأون قصص ألف ليلة وليلة ، كان هو يفتش فى كتب والده الدينية . وعثر فى التصوف على كتاب قديم فطالعه وفكر فيه مليًا ثم كتب مقالا عن الرهبنة فى الإسلام ، اعتبر التصوف نوعا من الرهبنة ، وبعث بالمقال إلى جريدة « المقطم » فنشرته تحت عنوان ضخم : « الرهبنة فى الإسلام لفضيلة الشيخ سعيد .. » وأثار المقال ضجة بين علماء الأزهر ، واشتد النقاش بينهم ، بين موافق ومعارض . واتهم بعضهم بعضًا بالزندقة ، وكان والده من بين القراء المتابعين للنقاش العنيف ، دون أن يدرى أن الشيخ سعد هذا الذى أثار الزوبعة وأوقع رجال الأزهر بعضهم فى بعض ليس سوى ابنه الصبى ، الذى نسى أمر مقاله وانصرف يلعب مع زملائه الغلمان فى الحارة !.. ولا أستبعد ذلك من صديقى سعيد

ففيه من المتناقضات ما يحير .. دخلت عليه ذات صباح فى حجرته بالفندق ، فوجدته منكوش الشعر والحاجبين ، ذلك الشعر الأسود الغطيس على وجهه الأسمر الغامق ، وقد جلس على طرف السرير وأدلى بقدمين بلون الزفت والقطران فى طست كبير ، وحسناء قال إنها بلجيكية نزلت باريس حديثًا لا أدرى كيف التقى بها ، قد ركعت على ركبتيها أمام الطست تغسل لـه قدميه .. فما تمالكت أن صحت به : « لعنة الله عليك متوحش همجى !» وفهمت الحسناء من لهجتى وإشارتى أنى أشتمــه ، فضحكت ، وضحك هـو ولـعب لى حواجبه على الطريقـة الشرقية ، وكأنه يقول لى : « مت بغيظك !.. ». وانسحبت فى الحال مشمئزًا من هذا المنظر ، منظر المتحضرة التى يعاملهـا صديقى الشرقى معاملة الجوارى !.. وذهبت توًا إلى حجرتى الجديدة فى شارع « أولم » على مقربة من مبنى « البانتيـون » العظيم . مدفن العظماء حيث كتب على جبهته بماء الذهب هذه العبارة المشهورة : « لعظماء الرجال تقدير الوطـن ». كانت الحجرة عند امرأة جاوزت الستين ، فى شقة من ثلاث حجرات ومدخل ، تؤجر حجرة منها مفروشة هى التى استأجرتها أنا من

أيام، ولعل ما أغرانى بهذا السكن إعلان حائط كبير علق بالمدخل، .علن عن حفله تمثيلية يرجع تاريخها إلى عام ١٨٩٩ لمسرحية «راسين» الخالدة «أندروماك»، على مسرح بلدية مدينة روان، العاصمة القديمة لمقاطعة نورماندى. ولما سألت عن سبب لصق هذا الإعلان القديم على حائط المدخل، أجابت المرأة العجوز فى زهو ومباهاة وهى تشير إلى اسمها فوق الإعلان الذى اصفر واغبر من القدم: هذا اسمى أنا، وكنت أنا أمثل دور «أندروماك» وكنت بالطبع جميلة وموهوبة، أما الآن فإنى أعيش على الذكرى!... حقًا كان كل شىء فى هذا المسكن الصغير يفوح برائحة الفن، كما يفوح عطر الوردة المحنطة داخل صفحات كتاب قديم. واستهوانى ذلك الجو، وأردت أن أعيش فى كنفه أيامًا..

هذه صورة خاطفة لانطباعات عمرها يزيد عن الخمسين عاما.. ازدحمت فى رأسى وأنا ألقيها الآن سريعًا على الورق.. ببساطة وبلا ترتيب. الخاطر يجر الخاطر، حسب ما تأتى به يد الذاكرة من بعيد وسط ضباب الماضى.وأنا أهيئ نفسى الآن للقيام برحلة المستقبل. فإلى الطائرة سفينة اليوم.. التى تمخر بنا الفضاء فى ساعات لا فى أيام..

رحلة حول الحاضر

ركبنا الطائرة فى اتجاه جنيف . لم أشعر بوقت يمر للهبوط . لا مكان هنا للاسترخاء والتأمل على النحو الذى كنا نعرفه فى البواخر البطيئة . فى مثل هذه السرعة الخاطفة ، كيف يتأمل إذن اليوم المتأملون ؟!.. أغلب ظنى أن التأمل والتفكير اليوم هما من قبيل الموجات الكهربائية أو الشحنات المغناطيسية ، فى حين كان تأملنا وتفكيرنا فى عهد الوقت البطيء هما من قبيل التوليدات المنطقية والمولدات البخارية .. لم أكن قد رأيت جنيف منذ أواخر الثلاثينات .. لذلك بدا لى كل شيء فيها الآن جديدًا .

ونقلتنا سيارة أجرة إلى الفندق . وإذا بى ألاحظ أن سائق السيارة يكلم نفسه طوال الطريق بصوت مسموع ، وكأنه يجيب عن أسئلة توجه إليه .. فقلت فى شبه ذعر : سائق التاكسى مجنون ، وقد وقعنا فى شر أعمالنا !... ولكن مرافقى سرعان

ما تنبه وطمأنني : بالسيارة تليفون لاسلكى ، والسائق يخاطب به من يطلبونه . وعلمنا بعد ذلك أنه ما من سيارة تاكسى تسير بغير هذا التليفون اللاسلكى ، وأن الطلبات يتلقاها السائق وهو فى الطريق ، فلا يوجد تاكسى يسير هنا على غير هدى ، وعندما طلبنا ذات مرة من السائق أن ينتظرنا قليلا أمام أحد الحوانيت اعتذر وقال : إنه مطلوب باللاسلكى لإحدى المهمات السريعة ، ودلنا على محطة أوتوبيس . وعندما ركبنا الأوتوبيس ، لم نجد أحدًا يطلب منا تذكرة ، ونظرت إلى بقية الركاب فوجدتهم جميعًا جالسين هادئين لا تذاكر فى أيديهم ولا كمسارى يطالبهم ، ومن يصعد يصنع مثلنا يجلس ، وما من مطالب . وليس فى المكان غير السائق وحده المنهمك فقط فى قيادة المركبة . قلت فى نفسى ولمرافقى لعل الأوتوبيس هنا بالمجان . ورأينا للاطمئنان أن نسأل السائق ، فسألناه ، فقال فى دهشة : « أليس معكم تذاكر ؟» .. تذاكر ؟!.. وهل طلب منا أحد تذاكر ؟! فابتسم الرجل بسماحة ، وعند أول محطة ترك مكان القيادة ونزل معنا وأرانا جهازًا بالحائط توضع فى ثقب منه عملة صغيرة فتخرج التذكرة

من ثقب آخر ، ويختمها الراكب بنفسه من ثقب ثالث . وعلّمنا كيف نصنع كل ذلك وتركنا وعاد إلى عمله ، وقد فهمنا منه أنه ما من أحد يطلب من راكب تذكرة أو يفتش أو يراقب أو يراجع .. لأن المفروض هنا الأمانة ، وما من راكب يخطر بباله هنا سوء النية !.. الأمانة والنظام كم يوفران على الشعب وعلى الدولة من جهد ومال !.. ورحم الله شعوب الهرجلة وقلة الذمة !.

على أن الذى أدهشنى أيضًا فى سويسرا ، هو ما رأيته فى أكثر من صيدلية ؛ إنى معتاد على دواء ضد تصلب الشرايين مصنوع فى سويسرا ، وقد عولت على انتهاز فرصة وجودى بها لأشترى كمية كافية منه ، ولكن ما كدت أسأل عنه حتى وجدتهم يبحثون لى عنه بمشقة ، كما لو كان دواء أجنبيًا ، ولم أجده فى أكثر من صيدلية .. وعندما وجدته أخيرًا ، لم أجد غير زجاجة واحدة منه لدى الصيدلى ، فصحت به : هذا دواء سويسرى مصنوع فى بلادكم ، ونحن نستورده منكم !..

فقال : « هذا صحيح ، ولكن الطلب عليه قليل من زبائننا

نحن هنا ».

فقلت له : « إذن نحن نمرض ، وأنتم تصنعون لنا الدواء ! » .. وتركناه إلى فندقنا الذى وجدنا فيه حجرة بغاية الصعوبة وبأبهظ النفقات . الفنادق هنا كلها مشغولة ، كاملة العدد ، بلد سياحى يكتظ بالناس من مختلف الأجناس وتتدفق فيه العملات الحرة والصعبة كالأنهار لتصب فى بحيرة « ليمان » . هذه البحيرة الجميلة تتوسطها نافورة ، اقتبسنا عنها نافورتنا التى فى النيل .. ولكنهم هنا يعرفون كيف ينتفعون بالجمال ، ويدركون كم يدر الجمال من مال .. نزهات البحيرة لا تنقطع .. وفى كل ساعة يطوف فيها قارب بخارى بالسائحين . وركبنا قاربا من هذه القوارب طاف بنا ساعتين فى أرجاء البحيرة ، فرأينا نموذجًا مصغرًا للجنة الموعودة .. على الضفتين تلال خضراء تنتثر عليها فى شبه مدرجات طبيعية من غابات وأزهار قصور وفيلات وشاليهات .. وكان مذياع القارب يذيع علينا بين لحظة وأخرى وصف ما نرى .. فيقول : « هذا القصر الذى عن يمينكم فى تلك الضفة هو قصر أغا خان .. وذلك القصر الذى عن يساركم فى

الضفة الأخرى هو قصر المالى الشهير روتشيلد .. ونحو ذلك ممن أنعم الله عليهم فى الدنيا فجعل لهم قصورًا فى جنة الأرض « الفانية » !.. وأدركنا بالحس المادى معنى قولنا ودعائنا نحن المؤمنين فى كل ركعة : اللهم اجعل لنا قصرًا فى الجنة !.. ولكنى أنا شخصيًا أكتفى فقط بفيللا صغيرة من هذه الفيللات المنثورة ، أو مجرد شاليه من هذه الشاليهات ، وحبذا لو عجل لى الله هذا النعيم فى جنة الأرض أولا ليطمئن قلبى .. وتذكرت ما كنت قد قرأته فى عشرينات هذا القرن عن الموسيقى «سترافنسكى» .. قال إنه ترك بلاده روسيا حاملا حقيبة كبيرة ممتلئة بالأغانى والأنغام الفلكلورية لشعبه ، واستأجر فيللا على بحيرة « ليمان » هذه ، وعكف عليها زمنًا يستخلص منها جواهرها ، وينفض عنها سذاجتها وسطحيتها ، ويصبها فى أروع أساليب الفن الموسيقى الذى درس أسراره وملك ناصيته ، فخرجت للناس تلك الآيات الخالدة التى منها « بتروشكا » و « عصفور النار » .. جعلت أتأمل تلك الفيللات من حولى وأقول : لعل واحدة من بينها هى التى سكنها يوما ذلك الفنان العظيم .. ولكن هذا شىء طبيعى أن

يولد فى مثل هذه الجنة الجميلة فن جميل !.. جربنى يا إلهى .. ضعنى فى جنة من جناتك ، وأسبغ علىّ السكينة وراحة البال ، وأبعد عنى مسئوليات الأسرة ومتاعب العيال .. وجنبنى ما يؤذى الأسماع والأبصار .. وما يهز الأعصاب من سيء الأخبار .. ثم طالبنى بفن جميل !..

مرة واحدة فقط فى حياتى ولمدة أسبوعين عشت فى مثل هذا الإطار الطبيعى الجميل .. ولكن كل شيء مر بسرعة خاطفة وأنا ذاهل عن التفكير الجدى فى إنتاج أى عمل فنى .. كان ذلك فى عام ١٩٣٦ .. فى الصيف .. ذهبت إلى باريس ، فمرضت .. فعادنى طبيب ووصف لى تغيير الهواء فى أحد مصايف الجبال .. فكدت أهمل علاجه ، فالجبال هذه لا أعرف عنها شيئًا .. ولكنى تذكرت فجأة أن الدكتور طه حسين كان قد ترك لى عنوان مصيفه فى أحد جبال الألب بالسافوا العليا فى فرنسا ، على أما أن نتقابل .. فلقد كانت الفرقة القومية قد أنشئت فى العام السابق ١٩٣٥ ، وافتتحت بمسرحيتى « أهل الكهف ». فرأت الفرقة ، وكان مديرها الشاعر الكبير خليل مطران ، أن يكون افتتاح

الموسم التالى بمسرحية يكتبها طه حسين . ولكن يظهر أن الدكتور طه قال إنه لا يحسن كتابة الحوار واقترح أن أشترك معـه فى تأليفها ، فرحب مدير الفرقة ، وأيدت اللجنة العليا المشرفـة عليها ، وكان من بين أعضائها الشيخ مصطفى عبد الرازق ، هذا الاقتراح . وجرى الأمر فيما يبدو مجرى الجد ، وأنا فى وادٍ آخر فقد كنت قد سافرت إلى باريس ومرضت هناك .. ولولا هذا المرض لما تذكرت عنوان الدكتور طه فى الجبل ، ولما فكرت فى جبال على الإطلاق .. فأنا لا أفكر فى غير باريس ، وأنا كما يقول الشاعر الألمانى « هاينى » أنا فى بـاريس كالسمك فى الماء .. وحزمت أمرى وسافرت إلى الجبال ، كان المصيف المقصود قرية اسمها « سالانش » ، فى حضن جبل متوج بالجليد . كان منظر الجبل الأبيض والغابات الخضراء وأشجار البندق واللوز والكرز والأبقار الحمراء والأجـراس الصغيرة فى أعناقهـا ترعـــى فى السهول .. أشياء أصابتنى بالذهول .. وكان طه حسين يرقب ذهولى فى مرح خفى وضحك خافت . ونسينا ما جئنا من أجله ، وجلس هو يصف فى فصل أدبى ما كان من أمر وصولى وذهولى

فيما سمى بعد ذلك بالقصر المسحور . جعلنا نتعابث فيه ونمزح ، ويرد كل منا على الآخر فى فصول دون تخطيط أو تأليف جدى .. إلى أن فوجئنا ذات يوم بخطاب من خليل مطران تاريخه ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٦ يقول فيه ما نصه :

« .. أتصوركما جالسين تتعاونان فى إبراز قصة المتنبى على ما سمعت ، فأغبطكما وأتمنى لو تسنى لى السفر وكنت كاتب يدكما . إنا لنرقب منكما ما نرقب ، والفن التمثيلى مشوق أشد الشوق إلى الفجر الذى ستطلعانه عليه فى اللغة العربية بعد ليله الدامس الطويل . فبارك الله فيكما وآتاكما الصحة والقوة وغاية ما أرجوه هو أن يمتد بى أجلى لأكون من أشهاد فوزكما إن لم يتيسر لى أن أكون من خدمتة .. »

وتأثرت لرقة هذا الشاعر الكبير وتواضعه ، وأسفت لأخذه الأمر بكل هذا الجد ، ونحن هنا نعبث .. ثم عجبت لحكاية قصة المتنبى هذه .. إنى أسمعها لأول مرة .. هل كانت هناك فكرة أن تكون مسرحيتنا المأمولة عن المتنبى ؟.. لم يخطر على بالنا الحديث فى ذلك .. و لم نفكر قط فى مسرح ولا مسرحية .. واستغرقتنا

متعة الجبل ؛ كنا نجلس تحت شجرة فى حديقة الفندق ، المنفتحة فيما أذكر على شبه حقل أو مرعى ممتد إلى مرمى البصر ، يشقه طريق ضيق برى جبلى غير ممهد ، كنا نسير فيه على الأقدام إلى أن نصل إلى البركة التى أصطاد فيها السمك .. وعندما كنت أريد الخلو إلى نفسى وورق لأكتب نصيبى من الفصل العابث ، إلى المقهى الوحيد فى ساحة القرية .. محل صغير لتناول القهوة باللبن ، تديره وتخدم فيه شابة حسناء فى ثوب أبيض كالملائكة . قرية بسيطة . وفندق هادئ .. فندق « الجبل الأبيض » الذى نزلنا فيه . هدوء ينسى المرض ويريح الأعصاب ، وهواء نقى معطر بأزهار الجبل البرية ، نشم فيه ريح العافية .. حرام أن نضيع كل هذا فى تأليف مسرحية .. وأغرانى المكر السيئ أن ألقى الحمل على غيرنا .. وغيرنا هنا هو المسكين شاعرنا خليل مطران .. كنت أعلم أنه كان قد أتم الجزء الأكبر من مسرحية ألفها عن هارون الرشيد .. فكتبت إليه أطلب إرسال ما تم من هذه المسرحية لنعاونه على إتمامها وإعدادها للموسم . فهذا على الأقل عمل جاهز ، أو على وشك التمام ، وهى على كل حال طريقة

لصرف النظر عنا وعن قصة المتنبى هذه .. ولكن يظهر أن الحيلة لم تجز عليه ، فقد أرسل إلىّ يقول ما نصه :

« .. تقبل منى اعتذارى عن عدم إرسال شىء إليك من الأوراق المنثورة فى قصة هارون الرشيد . فلا قبل لى اليوم حتى بالنظر إلى أوراق القديمة ولا بإعمال فكرى أدنى هنيهة . أصلح الله هذه الحالة ومتعك بالعافية ورد إليك تمام النشاط » ..

المهم فى كل هذا أنى عرفت الجبل ومتعته وقدرته على أن ينسينا المرض ، فلم أشعر فيه حقًا بأى توعك فى الصحة . وغادرته إلى سالزبورج لأشاهد فى المهرجان الفنى السنوى مسرحية فاوست لجوته يخرجها أكبر مخرج حى فى ذلك العهد فى العالم كله وهو « ماكس راينهارت » .. ثم الموسيقى بقيادة عظيم قادة العصر « توسكانينى » .. عمالقة فى الفن لا يجود بمثلهم الزمان ، رأيتهم بعينى .. ولكن المرض عاودنى فى سالزبورج ..

* * *

وتركنا جنيف لنذهب إلى جبال الألب فى فرنسا ، إلى المصيف القديم فى قرية « سالانش » ، حسب البرنامج الموضوع ، لأطالع

وجهها اليوم ونحن فى عام ١٩٧١ ، بعد غيبة طالت أكثر من ثلث قرن .. كنا قد طلبنا بالتليفون حجز حجرة فى نفس الفندق « الجبل الأبيض » ووصلنا فى المساء ، وكان فى استقبالنا صاحب الفندق . ولكن الفندق لم يعد هو الفندق القديم ! .. أين الحديقة الصغيرة ؟.. أين الشجرة التى كنا نجلس تحتها ؟.. وما هـذا المدخل ؟.. وهذا البار ؟.. وهذه الطوابق ؟.. إنه فندق كفندق المدن .. ونظرنا من نافذة حجرتنا فلم أجد الجبل المتوج بالجليد ، الذى كان يطالعنا منظره وأنا أفتح النافذة كل صباح .. بل طالعنى منظر شارع مرصوف بالأسفلت تمر فيه السيارات واللوريات .. واستبد بى الغضب فنزلت فى الحال أقابل صاحب الفندق وأقول له : ما هـذا ؟.. أين الخضرة ؟.. أين المراعى ؟.. أين الأشجار ؟.. إنى ما جئت هنا لأنزل فندقًا كفنادق المدن يشرف على شارع مرصوف بالأسفلت .. فبدا لى أنه لم يفهم .. فحدثته عما أحمله من ذكريات قديمة لهذا الفندق . يوم كان شيئًا آخر فى بساطته البرية .. فأدرك ما أقصد وابتسم وقال إنه كان صبيًا فى ذلك العهد .. ويتذكر فعلا فى صورة غامضة تلك الأحراش

والمراعى والبساطة ، لكن كل شيء قد تغير .. وسالانش لم تعد كما كانت فى الماضى .. ووعد أن يدلنى فى صباح الغد على فندق جديد خارج البلدة يتوفر فيه ما أطلب من مناظر .. وقام بالفعل بما وعد ، وقادنا فى اليوم التالى إلى فندق فى صورة شاليه من خشب الأشجار ، اسمه لالفعل اسم نوع من الشجر له ثمر تحبه الطيور ، وتحيط به مناظر الجبال التى يتوجها الجليد . فرضينا ووجدنا فيه الراحة والمتعة ، متعة الطبيعة الجميلة المريحة للأعصاب ، ومتعة الحياة العصرية بجهاز التليفزيون الذى ينقل إلينا حياة باريس وملاهيها ونحن فى أعالى جبال الألب . ولكنى جئت للذكرى ، فأخذت أجوس خلال القرية ، أو تلك التى كانت قرية ، فإذا بها مدينة صغيرة . بها العديد من المقاهى والبارات والحوانيت والمحال الكبرى والتاكسيات والسينمات !.. ورأيت الرافعات الضخمة شارعة فى إقامة المبانى للمصانع .. والعمال فى كل مكان .. إذن هو التقدم ، والتقدم هو البعد عن الطبيعة .. وعندها سألت عن البلاج . ولم يكن من الممكن أن أعرف بنفسى الطريق إليه وقد تغير كل شيء .. فاستأجرت سيارة

تاكسى ، انطلقت بنا فى طرقات مرصوفة بالأسفلت .. ووصلنا إلى البركة القديمة فإذا بها قد سورت ، والدخول إليها بتذاكر ، واتخذت شكل البلاج فعلا فى المصايف الحديثة بما وضع فيها من شمسيات كبيرة ملونة مرصوصة وسابحين وسابحات بالمايوهات .

فرجعت ، خائب الأمل ، ولم أجد جدوى فى تذكر شيء .. وطول الطريق أرى جديدًا لم يكن موجودًا .. فأبنية النوادى الرياضية تصادفنا فى كل خطوة .. لكل الأعمار .. للأطفال والغلمان والصبايا نواديهم ، وأمام الأبواب مئات من الدراجات .. أجيال من الأطفال والشباب تبنى أجسامها بالرياضة ، لتحمل بناء المستقبل .. وكيف ستكون أيضًا صورة المستقبل فى هذه البلاد وأنا أبصر فيها اليوم الطائرات تمرق بين الجبال الشم غير حافلة بشموخها الجليل ؟.. لا .. لم تعد فائدة فى تذكر الماضى هنا .. فلنعش الحاضر . وعشناه بعد أن يئست من العثور على شيء يبعث لى طيفًا من أطياف ذلك الأمس البعيد ..

قضينا فى الجبل ما استطعنا من مدة ، نرم صحتنا ونتعم بتلك الطبيعة التى لم تقو يد الإنسان على المساس بصفائها ، حتى لم يبق

من أجازتنا غير عشرة أيام أخيرة ، خشينا أن تفلت منا هنا قبل أن نذهب إلى باريس . وذهابى إلى باريس ضرورى ، لأن برنامجى يقوم على زيارة المكان الذى نبتت فيه « زهرة العمر ».. وأردنا قبل انتقالنا أن نحجز حجرة فى فندق باريس ، فكان المستحيل بعينه ، ظلت عاملة التليفون تطلب لنا فنادق باريس . فإذا الرد دائمًا : لا .. لا توجد حجرة خالية .. كل فنادق باريس مشغولة ، كاملة العدد .. وأخيرًا وبعد جهد وجدنا من يقول : توجد حجرة واحدة فى فندق كبير يحوى مئات الحجرات . فسافرنا إليه فى الحال . وما كدنا نصل حتى قالوا لنا فى الاستقبال : الحجز هو لليلة واحدة فقط ، وفى الصباح يجب إخلاء الحجرة ، لأنها محجوزة لغيركم بعد ذلك ، وها هى ذى أكوام البرقيات من مختلف البلاد للحجز ! قلنا نريد أن نمكث فى باريس عشرة أيام ، فضحكوا وقالوا : لا يوجد اليوم فى باريس فندق يؤويكم طول هذه المدة ، كل ما يمكن أن تأملوا فيه هو ليلة واحدة ، ربما وجدتم ليلتين ! وهل تلقون بنا وبأمتعتنا فى الطريق ، ومعنا النقود ، وعلى استعداد لدفع ما تطلبون ؟.. فلم

يفد الكلام و لم تنفع المناقشة ... باريس اليوم متخمة بالسائحين من كل أنحاء العالم ... إنها ملتقى الجنس البشرى كله .. ماذا تقدم للناس ؟.. تقدم لهم حصيلة الحضارة الإنسانية مضغوطة فى مدينة واحدة .. إنها كما كنت أقول وأنا أشاهد الأموال تتدفق فيها ، رغم الغلاء الفاحش الذى فرضته على القادمين : إنها تبيع الحضارة ، بأغلى الأثمان . فى الأيام العشرة التى مكثناها فى باريس لم يقبلنا فندق أكثر من ليلة أو ليلتين ، لم نفتح الحقائب لكثرة انتقالنا بين الفنادق . والقلق يساورنا كل صباح ، لا ندرى بأى مكان سنبيت ، وهل سنجد السقف الذى نمضى تحته الليل ؟!. وسمم هذا القلق كل وجودنا بباريس فلم نستطع أن نحظى منها بما كنا نطمع . وقبل أن تخور عزيمتى وأنا فى هذه السن ، سارعت إلى زيارة مسكنى القديم فى شارع « بلبور » لأنشط ذاكرتى . كان مسكنى هذا فى عشرينات القرن ، مثار دهشة وتندر بين أصدقائى يومذاك ؛ فهو يقع فى حى منعزل من طرف بعيد آخر المدينة . كان أبعد من المقابر المشهورة فى باريس باسم « بيرلاشيز » كان قطار المترو يمر أولاً بمقابر بيرلاشيز قبل أن يصل إلى ميدان

« جامبتا » ، فأنزل فى هذا الميدان ثم أسير على قدمى مشوارًا طويلا قبل أن أصل إلى شارعى المسمى « بلبور » ما من مترو كان قد امتد إلى هذه المنطقة ، وما كان أحد من أصدقائى قد وطأت قدمه هذا المكان . صديق واحد هو الدكتور حسين فوزى ، كان يزورنى هناك ، وكان يقول لكل من يسأل عنى : تصوروا أنه ساكن بعد « القرافة » !.. ما من مصرى منذ رفاعة الطهطاوى إلى اليوم قد سكن مثل هذا الطرف النائى من باريس ..!

كنت فى أشد الشوق إلى رؤية شارعى القديم هذا ونحن فى عام ١٩٧١ .. فركبت المترو إلى ميدان جامبتا كما كنت أفعل منذ أكثر من خمسة وأربعين عاما . فوجدت الميدان بالطبع هو الميدان ولكنى لم أجد المطاعم التى كنت أتناول فيها غذائى بل وجدت هناك مطاعم مشارب أخرى ! وهذا طبيعى واختلط علىّ الأمر فى شأن الشوارع وأين الشارع الذى كنت أسير فيه طويلا حتى أصل إلى « بلبور » لم أعرف ، واضطررت إلى سؤال أحد الشرطة فدلنى على الطريق فسرت فيه مشوارى إلى أن وجدت أخيرًا شارعًا كبيرًا يسمى « بلبور ». ولكن لدهشتى لم يكن هو

الشارع القديم الذى كنت أسكنه .. أعجب من ذلك أنه الآن ليس فى وضعه السابق . فقد كان قديمًا فى وضع أفقى ، وهو اليوم فى وضع رأسى ، مختلف كل الاختلاف .. عبثا حاولت أن أتعرف ملامح هذا الشارع الذى يحمل اسم « بلبور » ، إنه شارع آخر لا علاقة له على الإطلاق بالشارع القديم . أما فندق الذى كنت أقطنه والموصوف فى « زهرة العمر » فلا وجود له . بل لا وجود لأى منزل مما كنت أعرف فى سالف الزمان . لقد تملكتنى الدهشة ، وسألت صديقًا فرنسيا قديمًا ولا شك أنه ذهب إلى تلك المنطقة ورأى فيها ما رأيت ، وإنى لأدعوه ملحًا أن يزورها الآن إذا لم يكن زارها منذ أعوام ، وسوف يرى العجب !.. لم تعد هذه المنطقة بالنائية ، امتد إليها المترو ، وأصبحت لهذا الشارع الصغير المتواضع شبه المجهول قديمًا ، محطة مترو الآن تحمل اسمه ، وتليق باتساعه اليوم وأهميته فى الحى كله : مترو بلبور !.. ضاعت الملامح القديمة ، وتغير كل شىء .. وتذكرت دعوة الأصدقاء بمصر فى شتاء هذا العام لزيارة شارع سلامة بحى السيدة زينب ، الذى جاء ذكره فى « عودة الروح » .. فذهبنا وكان معنا

أيضًا بعض الصحفيين ، وإذا بنا نجد نفس المنزل ورقمه ٣٥ ، والشارع واسمه ووصفه كما كان بالضبط .. حتى المنزل المجاور بالمشربية إياها .. ما من شيء تغير ، أكثر من خمسين عاما ، وكل شيء كما كان ، وكأن الزمن جالس أمام باب المنزل ناعسا يدخن النرجيلة ..!

ولكني هنا فى شارع بلبور أنا حائر .. أسأل الناس وما من مجيب ، مجرد السؤال نفسه يبدو مضحكا ! أنا نفسى انقلبت فى نظر نفسى إلى شخصية روائية مضحكة ، يتحدث عن أشباح ، والعالم يموج حوله بالتقدم ، والعمارات الشاهقة والأحياء الجديدة قد تجاوزت شارع بلبور إلى مسافات بعيدة ومحطات أخرى عديدة للمترو قد تركته خلفها بمراحل مديدة .. وأنا أقول : كان هنا فندق ، كان هنا بيتى .. فيبتسم لى المارة ويبتعدون كأنى صرت أحد أشخاص أهل الكهف ! كيف يصبح المؤلف هو نفسه شخصية من شخصيات قصصه ؟!.. إنى ألاحظ أحيانًا هذه الظاهرة عندى .. يحدث لى عكس ما يحدث للآخرين ؛ لقد اعتاد الكتاب أن يعيشوا الحياة أولا ، ثم بعد ذلك

يكتبونها .. أما أنا ففي كثير من الأحيان أكتب الحياة أولا ثم أعيشها بعد ذلك . ولذلك أصبحت أخاف ما أكتب .. خشية أن أكون أسطر بيدى مصيرى !..

تركت هذا الحي بماضيه وحاضره ، وجعلت أستجلى وجه باريس اليوم ، ما أعرف منه وما أجهل . إن باريس ليست الماضى فقط ولا الحاضر فقط ، إنها الماضى والحاضر معًا ؛ إنها الماضى الجميل الذى يجب أن يبقى ، والحاضر المتغير ، ليلائم التقدم . أحياء قديمة باقية برمتها كما عرفتها من قديم ، وتماثيل كانت شامخة وظلت شامخة .. بل وبعض دور المسارح والسينما لم تزل باقية فى أماكنها تحمل أسماءها المعروفة من مائة أو مئات الأعوام .. إن التقدم فى بلاد الحضارة ليس معناه الهدم والإزالة فى كل الأحوال ، بل أيضًا معناه الترميم والإضافة . ولذلك نجد أحدث المسرحيات العصرية تعرض جنبًا إلى جنب مع المسرحيات الكلاسيكية أو القديمة العهد . لذلك عجبت لعرض ونجاح مسرحية « الحلم » لسترندبرج ، وهى من مسرحيات أوائل هذا القرن ، يعرضها الآن مسرح الكوميدى فرانسيز . حرصت على أن

أشاهدها ، لمعرفتي لها قراءة ، ولعجبي أن يفكر في إخراجها أحد في العصر الحاضر ، الذى يزخر باهتمامات أخرى تعكسها الاتجاهات الفنية المعاصرة . ولكن يظهر أن الحضارة الحقيقية مائدة حافلة بكل الألوان ، وأن التخلف هو تخلف المائدة في عرض الألوان المختلفة ، والاقتصار على لون دون لون ، وإطفاء شمعة لإشعال شمعة ، ومحو عمل لتقديم عمل ، وإزالة حجر لوضع حجر .. وهكذا يبدو البناء الحضارى ناقصا ، ومائدة الثقافة عرجاء . نلاحظ ذلك أحيانا عندنا في مجال الفنون : فالمسارح كلها تقدم لونا واحدًا ، واتجاها واحدًا ، وهى الكوميديا الاجتماعية الانتقادية ، وهذا شيء طيب ولا جدال .. ولكن البناء الثقافي والحضارى المتكامل في أى أمة راقية ، يجب أن يشمل الكلاسيك والروائع القديمة . لأن الشعوب تتكون بنيتها الحضارية من عناصر الفكر الخالد على مر العصور ، وتتماسك شخصيتها بالدسم والبروتينات والفيتامينات المختلفة الموجودة في نتاج فكرها وفكر الإنسانية في مدارسها الخلاقة جميعا . لأن شخصية أمة ليست عنصرًا واحدًا في حلقة واحدة ، ولكنها جملة

عناصر مختلفة تتكون فى حلقات العمر المتعاقبة .. لذلك كانت الكلاسيكية والواقعية والرمزية ونحو ذلك كله عناصر يتكون منها الفكر الحضارى كله . وأروع ما فى كل عنصر فيها يجب أن يقدم ضمن الغذاء . وهو يقدم فعلا دائما بكامل أنواعه فى كل متحف من متاحف الفن التشكيلى ، وفى كل تأليف وفى كل عرض فى تلك البلاد المتقدمة جميعا من غربية وشرقية . لهذا كما قلت ذهبت إلى الكوميدى فرانسيز أشاهد هذه المسرحية القديمة ، وكانت تمثل بنجاح طول العام . فإذا بالمسرح مكتظ بالمشاهدين فلم أجد محلا مريحا ، وقبلت ما وجدت ، ورفعت الستار عن المنظر الأول وهو منظر ابنة الإله أندرا وفى أساطير الهند وهى تهبط من السماء إلى الأرض لتشاهد أحوال البشر . وكان منظرا رائعًا : هذا الهبوط من السماء المزينة بالنجوم اللامعة وملابس ابنة الإله أندرا وتصميمها ، وحديثها مع أبيها وهى تلمح الأرض بغاباتها الخضراء وجبالها الشماء وتدهش لجمال هذا الكوكب ، وأبوها يذكرها بمهمتها ويقول لها : اهبطى واسمعى وأبصرى ثم عودى لتخبرينى هل شكاوى أهل الأرض لها حقا أساس تستند إليه ؟!

وتمضي المسرحية فى مناظرها المتعددة وأنا أقول فى نفسى : هذا حقًا هو الإخراج ؛ إنه الشاعرية والإيقاع ، ليس بالملابس وحدها ، ولا بالديكورات ، ولا المجموعات ، ولا بكل تلك الوسائل الفنية التى تبدو ذكية وبارعة ، هذه الأشياء هى الكيان المادى للعمل الفنى ، ولكن يبقى ذلك الروح الكامن داخل هذا الكيان ؛ كيف يمكن إبراز هذا الروح ؟ إنه ليس المعنى المستخرج من النص ، إنه ليس المضمون ، إنه ليس التفسير ، إنه شيء أخف وأشف ، لا يمكن أن يلمس أو يمس ، إنه ينبعث كالعطر أو كالضوء ، إنه ذلك الذى أسميه الشاعرية . وجدت هذه الشاعرية تنبعث أيضا من فيلم سينمائى هذه المرة ، شاهدته فى اليوم التالى فى سينما بالجراند بولفار ، فيلم عن قصة لتوماس مان اسمها « موت فى فنيسيا » للمخرج الإيطالى فيسكونتى .. كيف يمكن للسينما أن تصل إلى الشاعرية ؟ هذا سر هذا المخرج الموهوب .. أمامى أشياء كثيرة فى الفن والثقافة أريد أن أراها فى الأيام القليلة التى بقيت لى فى باريس ، لكن وأأسفاه . أصبت فجأة بروماتزم فى مفصل ساق اليمنى .. حدث لى ذلك دون إنذار ، ولست

أدرى كيف حدث : ذهبنا لتناول العشاء فى مطعم وأنا على أتم حال من الصحة ، نظرت فى قائمة الطعام فوجدت صنفًا راقنى اسمه « سمكترويت باللوز » والترويت هذا سمك معروف وخاصة فى أنهار الجبال ، وكنت أطمع فى اصطياد ولو واحدة منه فى بركة « سالانش » فلم أصطد إلا نفسى كما كتب طه حسين ، فى كتابنا المشترك « القصر المسحور » ، وهو يرى سنارتى لم تشبك فى فم السمكة وشبكت فى ملابسى !..

ولكن كيف يطهى سمك الترويت هذا باللوز !.. هذا ما أردت أن أعرفه وأذوقه . وطلبت هذا الصنف وأنا متردد ، ترى هل سيكون هذا السمك طازجًا ؟ وطمأنت نفسى بالجو البارد ووجود الثلاجات القوية . ولكنى لم ألبث أن رأيت الطاهى قد ظهر وفى يده شبكة صغيرة أدلى بها فى حوض زجاجى بجوارنا حسبته لمجرد الزينة ، وإذا به عديد من أسماك الترويت واستخرج بشبكته سمكة حية تتلوى وتتلعبط وابتسم لى قائلا : هذه سمكتك ، وذهب بها ليلقيها حية نابضة فى الماء المغلى ، ويأتى بها إلىّ فى طبق محشوة باللوز المقشور المبشور ، وأكلتها بلذة ونهم ،

ومرافقي ينظر إلىّ ثم إلى الحوض ويقول : « سبحان الله .. منذ قليل كانت هذه السمكة المسكينة حية تلعب مع أخواتها فى هذا الحوض ، فشاء حظها العاثر أن يوقعها هى فى الشبكة لتقدم إليك فى الطبق مسلوقة !.. » ونهضنا منصرفين .فما كدت أبلغ باب المطعم حتى شعرت بالوجع فى مفصلى ، لا أريد أن أقول إنه ذنب السمكة ، ولكن هذا هو الذى حدث . وصرت أمشى وأنا أتألم .. وباريس عندى هى السير .. السير وما من عصا فى يدى أتوكأ عليها ، فباريس لا تعرف العصى اللهم إلا عصى العميان البيضاء ، أما بقية الناس فلا يحملون سوى المظلات عندما يهطل المطر . بلاد لا تعرف العصا ولا المنشة ولا المسبحة ، أيدى الناس طليقة ، علامه الحركة والصحة والنشاط .

لكن ما الذى جرى للناس هنا ؟! رأيت أشياء لا أفهمها جيدًا . دخلت إحدى دور السينما القريبة من منطقة سكنى ، حتى لا أجهد ساق . كان موضوع الفيلم العلاقة الجنسية بين الزوجين ، فيلم تسجيلى ، ولكنه طويل ، اعتبر هو الأساسى ، والمعلن عنه إعلانات غطت الجدران : طبيب ويظهر أنه طبيب

حقيقى يشرح العملية الجنسية لزوجين شابين ، جاءا يقولان له : إن هذه العلاقة بينهما فى أول الأمر لم تكن مرضية تمامًا لجهلهما بأسرارها . وهنا أخذ الطبيب يشرح لهما الأوضاع ، مستعينًا بالصور والرسوم . ثم جاء الجزء الثانى من الفيلم فإذا به التطبيق العملى من الزوجين لما سمعاه وعرفاه من الطبيب . فظهرا عاريين يمارسان هذه العلاقة فى أتم وأكمل وجوهها .. العجيب فى الأمر عندى كان هو الجمهور المشاهد من حولى : لم تصدر عنه حركة ولا همسة ولا ضحكة ولا سعلة ! سكون مطبق وصمت رهيب ! كما لو كان حقًا فى قاعة محاضرة علمية ! قلت فى نفسى ربما أخذ الأمر هذا المأخذ ما دام فى الموضوع طبيب حقيقى يشرح .. ولكننى صادفت فى الحى سينما أخرى تعرض فيلمًا بعنوان « الزواج الجماعى » .. ليس هو بالفيلم التسجيلى وليس فيه طبيب ، إنما هو موضوع روائى ؛ جماعة من الأزواج الشباب ، اتفقوا فيما بينهم على أن يعيشوا معًا فى حياة مشتركة ، وأن يتقاسموا كل شيء فيما بينهم ، وأن يناموا فى حجرة واحدة ، ونساؤهم مشاع لمن شاء منهم ؛ للزوج أن يعاشر ما يروق له من

زوجات زملائه ! وللزوجة أن تختار ما تريد من أزواج زميلاتها ! كل ذلك بالرضا التام من الجميع ، وكأن الأمر رغيف خبز تتناوله الأيدى والأفواه !.. ثم شاهدنا هذه العلاقات الجنسية تتم أمامنا بكل تفصيلاتها التى تخدش الحياء . ولكن الجمهور .. الجمهور يا ناس .. هذا هو موضع عجبى الحقيقى .. نفس التصرف .. السكون المطبق والصمت التام .. لا همس .. ولا تعليـق .. ولا ضحك .. ولا حتى تنفس يسمع .. وخرجنا ونحن نكتم ما بنا ونندمج فى صفوف هذا الجمهور وهو خارج من القاعة ، علنا نسمع منه نكتة أو إشارة أو تلميحة إلى ما شاهد منذ قليل .. لا شيء .. وكأنه خارج أيضًا من قاعة جامعة .. كيف يقابل الجمهور باحترام ما يبدو لنا أنه غير محترم ؟!.. وتشككنا فى معنى ما شاهدنا ، وقلنا لعل هذا الجمهور فهم شيئًا آخر .. ولكن ماذا والعملية أمامنا لا تقبل أى تفسير !..

« هل الموضوع فى ذاته لا يهم ، والمهم نظرتك له ؟! » .. كنت أدخل على المرحوم الدكتور سعيد وهو فى معامل تحليله بالصحة .. وعينة من عينات البراز أمامه يعكف عليها بحرص ..

فأشمئز وأتأفف وأصب عليه وعلى عمله اللعنات فيقول لى : « اسكت إيش عرفك ! هذا شيء ثمين جدًا ».. فالشيء الواحد فى نظرى يدعو إلى التأفف والاشمئزاز وفى نظره يدعو إلى الحرص والعناية !.. لكن ما هى وجهة نظر هذا الجمهور فى تقبله الرزين لمثل هذه المشاهد ؟.. لا تفسير عندى سوى أن جماهير هذا العصر العلمى فى بلاد العلم تريد أن تعرف كل شيء يتعلق بالإنسان ، وأنه لا حياء فى العلم عندهم .. كان من الممكن أن أفسر ذلك أيضا بأنه حب الدعارة .. ولكن ذلك كان يقتضى أن يكون هذا الجمهور المشاهد داعرا ، ويتصرف إزاء عرض مثل هذه المشاهد تصرفات تبدو منها روح الابتذال، ولو بأسلوب مخفف أو مهذب ويبتعد عما هو مشاهد فى الشعوب المتأخرة من الصياح والهياج والتظاهر بالغيرة اللفظية على ما يظنه النظر السطحى مساسًا بالأخلاق .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل كان هذا الجمهور ينسج من حوله جوًا محترما مفعما بالجدية ، أشعرنا فعلا وصدقا كأننا فى قاعة علم لا فى صالة لهو .. وجعلت أفكر فى الأمر مستعرضا ما سبق من حضارات كبرى فوجدت بعض

التشابه . إن سمة الحضارة فى كل عصر هى البحث عن الحقيقة ، ولا حياء فى البحث عن الحقيقة ، وخاصة فيما يتعلق بالإنسان ويتصل بأسباب وجوده المادى والروحى . فكانت فى حضارة مصر القديمة والهند ترسم وتنحت فى المعابد بعض الأعضاء التناسلية رمزًا للحياة . كانوا يعرفون إذن هم أيضا أن « لا حياء فى الدين » كما « لا حياء فى العلم » ، ما دام الأساس فى كل ذلك : الرغبة فى « المعرفة » .. بل إن الشعر العربى القديم وكتب الأدب لمثل الجاحظ وابن عبد ربه كانت تتحدث عن الجنس كما نتحدث عن الطعام . وكانت أكثر الكتب الأدبية لا تكاد تخلو من باب للأطعمة وباب للباه، وما كان أحد وقتئذ يرى فى ذلك بـأسًا أو حرجا .. ولكن يظهر أنه عندما تأخذ الحضارات فى الانحطاط تكثر المحظورات ، وتسدل البراقع على كثير من الموضوعات ؛ إلى أن تمتد إلى روح المعرفة نفسها وعادة البحث فتصيبها بالشلل . وبهذا يقتل العلم وتنحسر الحضارة .. ليس معنى هذا هو فتح الباب فجأة للجنس الصريح أمام جماهير لم تتهيأ بعد لتقبله بمعنى مرتفع . فإن فتح النافذة فجأة أمام صدر مريض طال نومه قد

يصيبه بصدمة أو علة .. ولكن المطلوب هو الإعداد الطويل المدى لدخول الهواء الطلق ، وذلك بتعويد الناس شيئًا فشيئًا على احترام البحث الحر ، وإفساح الصدر لمناقشة الحقائق الحيوية ، وعدم التهيج والتعصب وإقفال النافذة بعنف أمام من يريد إدخال نسمة صغيرة فى مجال الفكر الطليق لبحث ومعرفة أسرار الحقيقة ..

إضافة أخرى لتفسير السلوك الوقور لهذا الجمهور أمام هذه المشاهد ، هى أنه كان ينظر إليها ليس فقط باحترام بل باهتمام ، ولماذا الاهتمام ؟.. إذا ذكرنا أن من سمات الحضارات كذلك الإتقان ، ازددنا فهمًا للأمر ؛ لأن الإتقان هو المكمل أو النتيجة لحب البحث . فأنت لكى تتقن شيئًا لا بد أن تعرف أسراره ، ولكى تعرف أسراره لا بد أن تبحث . ومن يلاحظ الحضارة الكبرى للعالم اليوم فى الغرب والشرق يجد هذه الظاهرة : لا يمكن أن يغتفر لأحد صغر أو كبر ما نسميه « الطصلقة » أو « الكلفتة » أو العمل بالمصادفة أو بالبركة أو حيثما اتفق ، كل عمل يجب أن يكون متقنا ، وكأنهم هناك عرفوا الحديث الشريف لرسول الله صلوات الله عليه : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عمــلا أن

يتقنه » .. ولذلك كانت صناعتهم الكبرى المتقنة التى تغزو الأسواق ، بما عرف عنها من إتقان .. حب الإتقان أو عادة الإتقان لكل شيء تدفعهم اليوم إلى أن لا يتركوا شيئًا للمصادفة ، وأن يعرفوا أسرار ما يمارسونه من أعمال ، وأن يمزقوا كل حجاب يحول بينهم وبين معرفة هذه الأسرار ..

والحياة الجنسية هذه ظلت قرونا تعتبر عندهم خطيئة ، ثم وضعت فى الظلام وهى فى نفس الوقت من ألصق الأشياء بحياة الإنسان ، ومن أشدها تأثيرًا فى وجوده .. فما دامت لها هذه الأهمية وهذا الأثر ، كيف إذن تترك أسرارها بلا بحث يؤدى إلى إتقان ! فمنطق الحضارة إذن يقضى بأنه إما أن يصرف عنها النظر ولا تمارس وتترك للظلام ، وإما أنه لا سبيل إلى تركها ، وأن ممارستها من ضرورات الإنسان .. وعندئذ يجب أن تعالج وتدرس وتتقن الإتقان الذى يبذل فى صناعات أقل اتصالا بصميم الإنسان ، فلا تجعل ممارستها رهنا بالظروف والمصادفات والجهل والإشاعات .. بل تعامل معاملة غيرها من وجوه النشاط الإنسانى فى هذا العصر العلمى ، الذى يضع كل ما يمس الإنسان تحت أشعة

الضوء الكاشف ، ويزوده بالخبرة التى تنفى الجهالة ، وتكفل له الوصول بكل ما يهمه وينفعه إلى ما يمكن بلوغه من كمال وإتقان .. إن كلمة الإتقان لها عندى قيمة كبرى ، وفى مفكرتى الصغيرة التى لا تفارق جيبى أضع الحديث الشريف الذى يحض على إتقان العمل لأن هذه الكلمة هى أساس التفوق الحضارى ، بل هى أساس ثروة الأمة فى كل إنتاج صناعى أو عملى أو فنى أو معنوى .

وعلى ذاكرتى صورة صغيرة قديمة لإتقان الشخص فى عمله وما يمكن أن يجنيه المجتمع معنويا من ذلك . هى صورة لصاحبنا الدكتور سعيد أيضا .. كان على الرغم من عبثه ، من أشد الناس تمسكا بالدقة والإتقان . عين مديرا لمستشفى الكلب ، فجعل من هذه المستشفى نموذجًا فريدًا فى النظام والنظافة والدقة . وذاع أمر هذه المستشفى بين المسئولين ، ولم تكن قد أنشئت فى ذلك الوقت وزارة الصحة ، بل كان الموجود مصلحة الصحة وتتبع وزارة الداخلية ، فكان إذا وفد على مصر زائر كبير من الحكام الأجانب أو كبار الأطباء أو العلماء فى الخارج قادوه إلى زيارة مستشفى الكلب أولا حتى يخرج بأثر طيب عن مستشفياتنا .

وكانوا يسألون الدكتور سعيد كيف استطاع أن يجعل من هذه المستشفى لؤلؤة مضيئة من النظافة والنظام ؟.. وكان الجواب معروفا؛ إنها الصرامة فى الدقة والإتقان . كان يمر كل صباح فترتج لمروره قلوب مرؤوسيه ، وأولهم كبيرة الممرضات الإنجليزية كان يتحداها دائمًا بقوله : هل أنت متأكدة من أن كل شىء نظيف وعلى ما يرام ؟.. فتجيبه بمثل تحديه « إذا استطعت يا دكتور أن تجد ذرة تراب واحدة فى أى مكان فلك أن تتكلم » قال لى مرة إنه اغتاظ لتحديها وأراد أن يكسر غرورها ، فلما لم يجد حقًا ذرة تراب ظاهرة فى أى حجرة أو ردهة ، زحزح خزانة ملابس لأحد المرضين فظهر خلفها تراب عالق بالحائط ، فمر بأصبعه عليه ونظر إليها مؤنبا فخجلت ، ولم يعد يجد فعلا بعد ذلك ذرة تراب لا فى الظاهر ولا فى الخفاء ..

ولاحظ أن أرانب التجارب فى المعمل يختفى منها زوج كل أسبوع ، فسأل الممرض المسئول عن المعمل وحيواناته ، وضيق عليه الخناق فاعترف بأنه فعلا يأخذ كل أسبوع زوجا من هذه الأرانب ليطبخه على ملوخية !.. فأطبق بيده على عنق الممرض

صائحًا : ملوخية يا بن الـ .. ودفع به إلى المرحاض وزج برأسه فيه وشد عليه السيفون !.. والمرض يصرخ ويستغيث . ثم جذبه بعد ذلك وذهب به إلى قفص النسانيس وحبسه فيه طول يومه ، ثم أخرجه على أن لا يعود إلى مثلها ، ودفع إليه بجنيه من جيبه قائلا له « عندما تطبخ ملوخية قل لى وأنا أعطيك ثمن الأرانب ، أما سرقة حيوانات المعمل فلا يمكن أن أسمح به أبدًا ». كان صارما قاسيا فى العمل ولكنه مع ذلك كان كريما محبوبا من مرؤوسيه . كان مرهوبا ومحبوبا فى نفس الوقت !..

فكرت الحكومة بعد ذلك فى إنشاء معمل للأمصال فرأوا أن يسندوا إليه إدارته مع ترقيته ، وهو المستحق للترقية فى نظر الجميع لبحوثه العلمية وكفاءته الإدارية . وكنت أنا أول الفرحين بذلك ، وإذا به يعود إلىّ كاسف البال يجلس إلى جانبى بالمقهى ويسخر من الجميع كعادته ويقول لى إنه رفض الوظيفة الجديدة ، لماذا !.. « لأن المسئولين هازلون .. يسمون هذا معملا للأمصال .. خمس زجاجات وعشر أنابيب اختبار وثلاثة بوابير جاز !.. ولا شىء فى الميزانية غير درجة المدير .. هذه هزليات ،

وأنا اعتدت العمل الجاد .. » ونصحه كل زملائه ومحبيه أن يقبل الآن الدرجة والترقية ، وهو يستحقها من سنوات ، وهـذا ولا شك ما راعاه المسئولون وقصدوه . أما العمل وإنشاء المعمل كما يريد فليتركه لله وللغيب ، فرفض وأصر على الرفض ، فهو لا يهتم بدرجة ولا ترقية ، إن الذى يهمه هو العمل الذى يستطيع أن يتقنه ويؤدى فيه خدمة حقيقية ، وليست المشروعات التى تقام على الورق بميزانيات تذهب فى درجات وترقيات !.. ولذلك رأى الأنفع أن يجلس معى فى القهوة يشاهد خلق الله !.. ويسخر من الجميع .. وتلك كانت كلماته ..

* * *

باريس فيها كل شىء .. كل ما تستطيع أن تتصوره موجود فى باريس ، إنها معرض العالم ومتجر العالم .. شىء واحد تأكد لى بعد البحث إنه غير موجود فى باريس ، هو رباط عنقى ، فأنا منذ أكثر من عشرين عاما لا أستعمل أربطة العنق المعروفة التى يعقدها الشخص بيده . وعندى أنواع من هذه الكرافتات أهديت إلىّ فلم أستعملها ، نوع واحد هو الذى اعتدت لبسه من قديم ، هذا

النوع العقدة فيه مربوطة جاهزة . وما علىّ أنا إلا أن أعلقها فى عنقى تعليقًا . إنه النوع الذى كان يسمى فى مطلع القرن بالبمباغ . والبمباغ نفسه أنواع ؛ منها النوع الذى كان يلبسه الشاعر شوقى ، وهو على شكل « فيونكه » وقد شاهدت « أحمد شوقى » عندما كان يجالسنا فى مقهى « داركور » بباريس (١٩٢٦) يحدثنى عما هو بصدده من تأليف مسرحيته الشعرية الأولى « مصرع كليوباترا ».. وكان يلبس هذا « البمباغ ».. وأحيانًا يأتى بدونه ، وعندما ننبه يفطن ويخرجه من جيبه قائلاً إنه سهل النسيان.. وهو بمحبس معدنى.. أما ذلك الذى ألبسه أنا فهو على نحو الكرافته ، بل هو كرافته فعلا ولكنها معقودة أصلا ؛ وكنت قد اشتريت عددًا منها منذ أكثر من عشر سنوات من باريس نفسها واحتفظت ببطاقة مطبوعة باسم مصنعها . فلما أردت اليوم أن أشترى هذا النوع لم أجده وقيل لى أخيرًا اطلب بغيتك فى محل كبير مثل « لافاييت » ربما تجد .. ودخلت هذا المتجر الهائل ، وكان معى مرافقى (وكنت قد تزوجت) فما كاد يخطو خطوات فيه ويرى معروضاته حتى زاغ منه البصر ، واختطفته ألوان البضائع

الخلابة ، فانفلت من يدى ، ومرق بين الأروقة والأقسام والمصاعد والسلالم الآلية ، وأنا ألاحقه بساق التى تؤلمنى ، وهو كالمنوم أو المجذوب بقوة سحرية تغريه بالشراء ، ولكن الحيرة تتملكه : ماذا يأخذ وماذا يترك ؟ كل شىء له ذوقه وطابعه وجماله ، ويطول تردده ويزداد لفه ودورانه وجريه فى كل مكان ، إلى أن فطن إلى تعبى وأنا أجرى خلفه ، فرأى أن يجلسنى فى مكان ، ويمضى هو على راحته يتفرج على كل معروض ويتخير ويفحص ويناقش كما يحلو له .. وبحث لى عن مقعد ، فلم يجد ..

لا أحد هنا يجلس ، الزبائن فى حركة دائمة ومرور لا ينقطع ، وكر وفر لا ينتهى صعودًا وهبوطًا من كل الطوابق .. وأخيرًا وجدنا فى قسم ملابس الأطفال مقعدا صغيرًا — لا ندرى أهو للعاملة البائعة أو للطفل الزبون ليجلسوه إذا أرادوا أن يلبسوه ثيابا .. فما كدت أرى هذا المقعد خاليا حتى ارتميت عليه دون كلام ، ورأت البائعة ما بى من تعب فتسامحت ، وانطلق المرافق واختفى فى هذه الغابة الخلابة ، والتفتُّ حولى فوجدت نفسى بين تماثيل من الشمع للأطفال فى ملابس الصيف والبلاج . ويظهر أن

ما بى من إجهاد قد سمرنى فى مقعدى فجلست بلا حراك وكأنى أنا الآخر تمثال من الشمع ، ولم أفطن إلا وبعض الزبائن يحملقون فى وجهى ، وبعض الأطفال يقترب منى ويلمسنى ليتأكد من حقيقة أمرى .. وبدا عليهم التساؤل : ما الحكمة فى وضع تمثال رجل عجوز بين تماثيل الأطفال ؟!من الزبائن من قد يكون فسر ذلك لنفسه بأن هذا منطقى : وجود رجل يمثل الجد بين حفدته من الأطفال ، وهو مبتهج بملابسه الجديدة !.. رأيت بعد ذلك أن أتحرك طول الوقت حتى أقطع الشك باليقين .. ويعلم الناس أنى من لحم ودم . ولم تكن البائعة صاحبة المقعد حاضرة طول الوقت . فقد كان شغلها يمتد إلى قسم آخر مجاور . ولكنها عندما كانت تمر بى وترانى جالسا متحرجا من شغل مقعدها وقتا طويلا ، وأحاول الاعتذار ، تبتسم متسامحة وتفهمنى أنها تدرك ما بى من حاجة إلى الجلوس والراحة ..

وظهر آخر الأمر مرافقى يحمل بعض المشتريات ويقول إنه يرجئ الباقى للغد .. فأصيح : أيوجد أيضا غد ؟!.. فيقول لى المرافق النسائى فى غمز ولمز « وماذا يضيرك فى هذا ويتعبك ؟

عندك المقعد تجلس عليه والبائعة الشابة الحسناء تغازلها !.. »

أغازلها ؟!.. سبحان الله !.. فتاة فى العشرين .. فى سن بناتنا وحفيدتنا !.. وأنت نفسك الزوجة العاقلة .. وياللنساء !.. اخترت لى هذا المقعد !.. ومع ذلك فأنا لم أفكر فى نفسى حتى الآن ، ولا فيما جئت من أجله .. رباط عنقى .. بمباغى !..

وقمنا نسأل فى قسم الكرافتات فلم نجد بالطبع . وقيل لنا إن هذا شيء غير موجود . فأخرجت البطاقة المطبوعة باسم المصنع الباريسى الذى يصنع هذا النوع ، فابتسموا وقالوا إن هذا المصنع قد كف عن صنع هذا الطراز منذ زمن طويل . وعقبت إحدى البائعات بقولها وهى تضحك : أيوجد اليوم من يكسل عن عقد ربطة عنقه بيده ؟!.. وقالت أخرى : العالم مقبل على عصر قد تختفى فيه الكرافتة كلية .. وكذلك العمال .. وسوف تطرح ويستغنى عنها وتظهر أنماط أخرى من الملابس الملائمة لروح العصر فاصرف نظرك يا سيدى عن هذا المطلب ..

وخرجت من المحل يائسا .. ماذا عساى أصنع ؟ وماذا ألبس عندما يبلى هذا البمباغ الأخير الذى بقى لى ؟ لماذا لا أستغنى عن

رباط العنق إطلاقا ؟.. ولكن هل لى من الشجاعة ما يجعلنى فى مثل سنى أخرج بدون كرافته ؟! يا للخجل !..

إنى أعرف أحيانا الشجاعة فى أشياء أكثر من ذلك خطورة وأهمية !.. إن العادة تشدنا ، والتقاليد تتحكم فى تصرفاتنا ، حتى فيما نوقن أنه عديم الجدوى . طوبى للشباب القادر على التحرر مما يراه غير ملائم . وإذا كنا نحن الشيوخ غير قادرين على التحرر من رباط عنق لا فائدة فيه ، فلماذا نريد من شبابنا الاستمرار فى خنق أعناقهم بهذا الرباط ؟!.

إن شباب باريس كما أراهم أمامى اليوم قد حسموا القضية فيما يظهر وانتهى الأمر . فهم اختاروا لأنفسهم المظهر الملائم فى رأيهم للعصر ، كما انتهوا إلى اختيار الشعر الطويل المرتب شكلا لرؤوسهم . وأصبح هذا الشكل مقبولا رسميا فى أعمال الدولة . فقد شاهدت مذيعى التليفزيون من الرجال فى شعور طويلة مرتبة وهندام نظيف . لم يعد الشعر الطويل إذن وقفا أو رمزًا للضياع ، ولكنه أصبح شكلا عامًا للرأس ، نراه عند العاملين النافعين من شباب ناهض وناضج وبعض الكهول وحتى الشيوخ . أما الشعر

القصير فله أيضا طلابه ومحبذوه كل حسب ما يلائمه . وهذا وذاك رأيته جنبا إلى جنب فى باريس . فى البنوك ، المتاجر ، المصالح ، البريد ، التلغراف .. كل الأماكن الرسمية نجد الموظفين فيها بشعور طويلة وقصيرة على السواء . ما دمت أنت نظيف المظهر فلا انتقاد لأحد عليك . وتستطيع أن تكون موظفا أو عاملا وتعامل بكل احترام .. الحرية فى باريس كالهواء ، ما دامت لا تضر الغير ..

وعدنا إلى فندقنا كى نجد فى انتظارنا العذاب المعهود ؛ صاحب الفندق يذكرنا بأن مدة إقامتنا تنتهى اليوم ، وعلينا أن نبحث عن فندق آخر ، يالله !.. ونحن الذين كنا نأمل وندعو المولى سبحانه وتعالى أن ينسيه وجودنا ، وكنا نخرج وندخل خلسة عن نظراته .. ولكن كيف ينسى والدفاتر أمامه تسجل مواعيد الحجز والإقامة لجميع النزلاء . لو كانت المسائل هنا بالبركة لطمعنا فى السهو والنسيان ، ولكننا فى بلاد كل شىء فيها يسير بدقة الساعة المضبوطة .. أمرنا إلى الله !.. فلنحزم أمتعتنا

مرة أخرى ونبحث عن سقف نقضى تحته ليلتنا .. ورحم الله عهدًا مضى كنا نطلب فيه الإقامة بالشهر فنستقبل بالحمد والترحاب.. أما اليوم مع شيوع الطائرات ووسائل المواصلات ، فقد كثرت التنقلات ، ونشطت السياحة ، وأصبح العثور على حجرة خالية فى فندق من أشق الأمور .. وأصبح البشر فى حركة مستمرة ، حتى خلنا العالم كله أخذ يضيق بالناس ..

* * *

رحلة حول الشخصية المصرية

عندما نفارق بلادنا ، فإن صورتها لا تفارق عيوننا .. وعندما كنت فى عشرينات هذا القرن أقطن باريس ، فى شارع « بلبور » ، هذا الذى ذهب اليوم رسمه وبقى اسمه ، كنت أفتح نافذتى كل صباح ، فلا أرى أمامى باريس وحدها ، بل أرى أيضا مصر ..

فى ذلك العهد ، وبالتحديد فى شهر يونيو سنة ١٩٢٧ ، كتبت قصة « العوالم » ، عوالم الفرح ، مستعيدًا ذكرى ذلك الجو الذى تنفست فيه أجمل نسمات صباى .. حيث كانت النشأة الطبيعية لمن كانت مسئوليته فى « عصر التنوير » هى « الفن » ، فى حين نشأة طه حسين هى « الجامعة » ، ونشأة العقاد « الكتاب » بما يلائم دور كل منهما للإنتاج الأدبى فى هذا العصر .. وفى كتابى « فن الأدب » بيان ذلك .

جعلت أستحضر ، وأنا فى باريس ، ملامح الأسطى حميدة الإسكندرانية ، أول من علمنى كلمة « الفن » .. ولما كان دورى فى حركة التنوير هو « الفن » مكملا بذلك دور طه حسين « الجامعى » ودور « الكتاب » للعقاد فى « المطالعات » .. فليس من المخجل أن أنوه وأكشف عن منبعى الأول فى « الفن » وهى « عالمة الفرح » .. وأسطر كلماتها وهى مسافرة فى القطار مع أفراد تختها لإحياء زفاف خارج القاهرة . كانت تودع الحاج محمد ، « مطيباتى » التخت أو متعهد حفلاته بالتعبير الحديث ، وتوصيه بلهفة والقطار يتحرك : « حاج محمد .. يا حاج محمد .. شوف يا اختى نسيت أقول لك .. يادى الحوسة .. الأرانب أمانة فى رقبتك يا حاج محمد .. ما تنساش ترمى للأرانب فوق السطح قشر العجوز .. أمانة عليك .. السيدة فى ضهرك .. » .

« .. وتحرك القطار بين صياح أفراد التخت .. وأخيرًا رفعت الأسطى حميدة رأسها قليلا وتنهدت ، ثم قالت بتأثر : « يا حبيبتى يا مصر !! » ، وكأن هذه الجملة كانت تعبر تمامًا عن

إحساس الجميع ، فأطرق الكل لحظة .. » الخ الخ ..

هذا نص ما كتبت فى ذلك التاريخ البعيد .. ولم تزل إلى اليوم ، وإلى الغد ، وإلى كل زمان ، جملة : « يا حبيبتى يا مصر » ، تعبر عن إحساس كل جيل فى مصر ..

وبعد أن فرغت من كتابة هذه القصة ، ألقيت بها فى درج مكتبى الخشبى البسيط الزهيد فى تلك الحجرة المتواضعة من ذلك الفندق الذى اختفى اليوم مع بقية مبانى الشارع الذى ضاعت معالمه على أهل هذا الجيل من سكان باريس ..

وزارنى صديق مصرى اعتاد أن يزورنى بين حين وحين فى ذلك الحى النائى المنعزل ، مع بعض المصريين الذين كانوا يقولون ضاحكين منى إن هذا الحى النائى لم يقطنه مصرى منذ رفاعة الطهطاوى !.. وفى الواقع كان هذا الحى يقع بعد « القرافة » أى المقبرة التى تسمى حتى اليوم : مقبرة « بيرلاشير » .. ما علينا !.. ولست أدرى ما الذى ذكرنى بالقصة المهملة ، فأخرجتها من الدرج ، ورأيت أن أطلعه عليها . وما أن قرأ عبارة : « ما تنساش ترمى للأرانب فوق السطح قشر

العجور » ، حتى ظهر عليه الحنين إلى مصر . وقال لى :

« هذه الجملة فيها كل شهر مايو بمصر .. الحر والعجور وعبد اللاوى » .. وسرح بفكره لحظة وكأنه يردد هو أيضًا فى أعماقه : « يا حبيبتى يا مصر » ..!

ما هى مصر ؟.. تلك التى تشغلنا فى بعدنا عنها أكثر مما تشغلنا فى قربنا منها ؟!.. يبدو لحبنا لها أنها شىء بسيط جدًا قد تبدو فى أغنية أو زجل أو موال .. ونراها فى البسطاء من أبنائها .. من أهل ريفها وحوارى مدنها ..

هذا صحيح ، ولكن هذا ليس كل شىء .. إنها ليست من الضآلة بحيث يمكن حصرها فى هذا النطاق الضيق .. إنها شىء عظيم جدًا .. ممتد فى الزمن ، متعمق فى الأثر ، إن ما نسميه « مصر » ، جسما وروحًا وشخصية ، يشبه الإنسان العظيم ..

عندما نريد أن نحيط بشخصية إنسان عظيم ، ماذا نفعل ؟.. هل نبحث عنها فى مشاعره أو فى مبادئه أو فى تفكيره ؟.. هل نحاول أن نراه وهو يعمل ويكدح ، أو وهو يغنى ويطرب أو هو

يضحك ويهزل، أو وهو يصلى ويؤمن، أو وهو يفكر ويتأمل ..؟

فى حجرتى القديمة تلك ، سألت نفسى وقتئذ هذا السؤال .. وكنا خارجين لتونا من ثورة سنة ١٩١٩ ، وكل همنا البحث عن شخصيتنا التى نطالب باستقلالها ، وكانت أقرب الموارد إلينا أحياءنا الشعبية وريفنا .. الملاءة اللف والجلباب الأزرق .. واتجهنا إلى هذه الناحية بكل قوانا ، بكل ما عندنا من حب ومن قدرة على خلق أو تصوير . ثم اتصلت بالحضارة فى المتاحف ، وأولها متاحفنا التى كنا نهمل زيارتها ونجهل استخراج معانيها الحضارية بالنسبة إلى شخصيتنا .. لم يوجهنا أحد إلى ذلك . ووجدنا التوجيه الميسر إلى ما يوجد فى أوربا من المكتبات الزاخرة والمعارض والجامعات وأخذت الكتب تتكدس فى حجرتى الصغيرة ، ولا أجد لها مكانا ، فتدفقت أكوامها على أرض الحجرة وصرت أحبس نفسى ، ليلى ونهارى مع رغيف خبز طويل أحشوه بالجبن ، وأجعله غذائى طول يومى ، أقضم منه بين حين وحين ووجهى غارق فى الصفحات .

إن مفهوم الشخصية عند هذه الأمم المتحضرة غير مفهومها

عندنا ؛ إنها ليست فى ناحية واحدة من نواحى الأمة .. إنها فى مجموع هذه النواحى جملة .. فيما هو فى القلب وفى الرأس معًا . إنها عند شعراء الريف الذين يكتبون بلغته المحلية من أمثال مسترال ورماندل وأوبانيل ، كما هى عند المفكرين الفصحاء من أمثال فولتير وراسين وباسكال . والعالم يعرف شخصية روسيا فى أغانى الفولجا ، كما يعرفها فى موسيقى كورساكوف وتشايكوفسكى .. ويراها فى باليه البولشوى ذى الأصل الأوربى الغربى ، كما يراها فى الرقصات الشعبية ، وفى كتب تولستوى وتشيكوف وجوركى وغيرهم .. هذا التكامل هو الذى يطلعنا على كل الملامح ، ويرينا الشخصية فى مختلف أوضاعها ..

إن الشخصية ليست صفة جامدة ثابته إلا فى الجسم الميت . أما فى الجسم الحى ، أو القابل للحياة ، فهى صفة حية متحركة ، تتغير وتتطور تبعًا لما تتلقاه من غذاء ومن تأثير ، شأن الإنسان الحى ، الذى تتكون شخصيته مما تتغذى به من أحداث وتجارب ومعارف فى حلقات العمر المختلفة . ومصر الحية ، التى تتكون حلقات عمرها الطويل من تيارات فكرية شتى فى عهود متباينة ،

من الوثنية إلى المسيحية إلى الإسلام ، لا بد أن تكون قد هضمت كل ذلك ، وشكلت منه بعض ملامح شخصيتها ، إذن لم تكن مصادفة أن أعود إلى مصر لأكتب « أهل الكهف » المأخوذة عن القرآن فى موضوع مسيحى ، وعن تفكير فى الزمن وثنى — فرعونى !.. حبى لمصر انتقل إذن إلى ناحية أخرى ، هى محاولة ربط حلقات هذه التيارات الفكريه فى هذه العهود من عمرها المديد ..

ثم جعلنا نناقش فى الثلاثينات شخصية مصر على أساس جديد بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، مختلف عن الأساس الذى كان معروفا بعد ثورة عرابى ، فى مفهوم عبد الله نديم مثلا ، أو محمد عبده .. وكانت المناقشات تتخذ شكلا علينا منشورا ، كتلك التى كانت مع الدكتور هيكل والدكتور طه ومعى نتبادل فيها الرسائل بالمجلات الأدبية .. أو شكلا خاصا شفويا مع أصدقاء مختلفين ، يجمعنا الاهتمام المشترك فى البحث عن « شخصية مصر وروح مصر .. ».

وكنا كلنا متفقين فى الرأى والاتجاه . وأن شخصية مصر هى

فى تكامـــل ملامحهـــا ومسار تفكيرهـــا عبر القـــرون والأحقاب .ويظهر أنه فى فترات الثقافة الكبرى تكون النظرة إلى مصر هذه النظرة الكبرى ، فلا يكتفى برؤية ملامح مصر فى مجرد أزجال ومواويل وسامر ونكات ورقص بطن ، وينظر إلى هذه الأشياء بسذاجة ، على أنها الأصالة ، ولم تكن بعد قد أخذت بجدية كمنابع وحى لفن أرق جدير بشخصية مصر الحية فى عصر جديد . ولذلك تنبهنا بعد ثورة ١٩١٩ ونحن فى صدد البحث عن روح مصر وعودتها إلى استخدام تلك الأساطير والفولكلـور وألف ليلة فى أدب الثلاثينات وفنه التشكيلى على النحو الذى استخدمه سترافنكسى وبارتـوك ودى فايـا للأغانى الشعبيـة الروسية والمجرية والأندلسية . ولو كان سيد درويش على ثقافة موسيقية مماثلة لفعل نفس الشيء . ولكن عبقريته أسعفتـه فى الإحساس والمضمون وقصرت فى الشكل والأسلوب . وقد فطن هو نفسه إلى ذلك ، شأن الفنانين الحقيقيين ، وأراد السفر إلى روما لدراسة الموسيقى على أصولها ، « وخاصة الأوبرالية » ، ليملك القدرة الكاملة على استخدام أحدث وسائل التعبير وأدوات

التطوير ، ولكن أحدا لم يفهم قصده ويساعده .. كما أن الأجل لم يمتد به ليحقق هذا الأمل .. ولو فعل ، وكان لا بد فاعلا بأى طريقة ، لظهرت ملامح مصر فى تلك الفترة مع تمثال مختار وجامعتها الفتية واضحة العالم ، مستيقظة الروح ، متهيئة لنهضة حقيقية تتمشى مع عصر حديث وحقبة جديدة من حياتها المستمرة مدى العصور ..

* * *

قال لى صديق فرنسى قابلته فى باريس ، إنه لا يستطيع أنْ ينسى منظرًا أثار دهشته فى مصر : شارع به جميع أنواع المواصلات التى خلقها الله أو صنعها الإنسان ، المترو والترام وعربات الكارو والأتوبيس والسيارات واللوريات والخيل والحمير ، والجمال والدراجات ، ولا ينقصه إلا المراكب .. والزحام لا يمكن وصفه وبين السيارة والأوتوبيس شعرة ، وبين الماشى والماشى لا شىء سوى البهدلة ، أو بالأقل اتساخ الملابس إذا لم يأخذ الشخص منتهى حذره .. ولكن العجب الذى استولى عليه هو رؤيته دراجة عليها شاب يحمل ثلاثة طوابق من الخبز ، بيد

واحدة ، وباليد الأخرى يمسك « بجودون » الدراجة ، ويمرق بما يحمل بين هذا الزحام مروق السهم دون أن يفقد التوازن ، فحسبه نجما من نجوم السيرك ، وسأل كم يتقاضى على ذلك ، فقيل له ثلاثة جنيهات ، واعتقد أنها فى اليوم الواحد طبعًا ، فلما علم أنها فى الشهر ، كاد يصعق .. ولكنه لم يلبث أن رأى ما هو أعجب .. شخص آخر على دراجة هو الآخر، يحمل عليها عجلى جاموس .. كل رأس عجالى معلق على طرف الدراجة ، أما المصارين والكوارع والجلود فتتدلى من الوسط ، وبقية الذبيحة مبقورة البطن موضوعة أفقيا خلف مقعده ، تظهر منها الكستليتة وبيت الكلاوى ، أما الكرشة والفشة والكبدة والطحال وخلافه فهى مربوطة فوق أكتافه ، وهو أيضا يمرق بحانوت الجزارة هذا الذى يحمله على الدراجة مرور السهام بين كتل الزحام دون أن يمسه سوء !..

العجيب أن هذا الفرنسى لم يكن يتحدث عن ذلك بروح الانتقاد ، بل بروح الانبهار .. قال : تصور أن هذا يحدث فى باريس !.. فقاطعته بقولى إن باريس لا يمكن أن يكون فيها شارع

بهذا الشكل . وحسب وصفه أدركت أنه شارع « الجلاء » فهو الذى تتجمع فيه كل أصناف المواصلات ، وفى كل مرة نسلكه ، نبتهل إلى الله أن يخرجنا منه سالمين ، كما أن شوارع باريس لا تسير فيها الدراجات ، ولم أشاهد طوال إقامتى فيها دراجة واحدة فى شارع من الشوارع .. فى الريف نعم .. لقد رأيت الدراجات فى الجبل ، أما المدن الكبرى فلا يسمح هناك بغير السيارات والأتوبيسات ، أما الدراجة وغيرها مما يعرقل المرور فلا .. ولكن الفرنسي قال : افرض فرضًا أن دراجة مرت بمثل هذا الحمل ؟.. قلت يعترضها بوليس المرور ويمنعها فورا . قال : أنت لم تفهم قصدى ، افرض أن دراجة مرت فى شارع باريس على هذه الصورة ، إنها تصبح أعجوبة ، وتتناولها كاميرات التصوير ، ويصطف المارة على جانبى الشارع يشاهدون ويصفقون . ألا تدرك أن فى مثل هذا العمل من المهارة ما يثير الإعجاب .. ومع ذلك فالمارة عندكم لا يلاحظون ذلك ، ولا يحفلون به ..

الواقع أن الأوربيين شديدو الملاحظة لما عندنا من مهارات .. فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، كنت أقطن بانسيون ، ينزل معي

فيه ضابط من كبار الضباط الإنجليز ، وكانت تجمعنا مائدة العشاء .. كان دائم الحديث عن عامل مصرى فى الجيش فى قسم الصيانة ، بعين واحدة .. كان يذكر مهارته الفائقة فى الصناعة الدقيقة ، مما جعل الإنجليز يحلو لهم مشاهدته وهو يعمل ، ولا يتصورون وجود عامل إنجليزى يستطيع تأدية هذا العمل الدقيق بمثل هذه المهارة ، وكانوا يرددون فيما بينهم « هذا الرجل ذو العين الواحدة ! » وقد أصبح عندهم أسطورة ..!

هذه أمثلة بسيطة تحضرنى ، ولها ألوف من النظائر . وهى تدل عندى على أن مصر عندما تفقد قوتها الفكرية لسبب من الأسباب ، أهمها الاحتلال الأجنبى الطويل ، فإنها لا تموت . لأنها لا تعرف الموت ، ولكنها تعوض ذلك فى الحال بالمهارة اليدوية ..

* * *

من أبرز الملامح لشخصية مصر أنها تستطيع أن تجمع الإيمان والعلم والفن فى شخص واحد ، أو عمل واحد ، أو مكان واحد ، على نحو عجيب . نرى ذلك منذ حلقات عمرها الأولى فى

العهد الوثنى ـــ الفرعونى . فالهرم يجمع بين الأعجوبة العلمية الهندسية الرياضية الفلكية ، بل أيضًا التكنولوجية الأولى فى رفع أحجار بهذه الضخامة ، وبين الشكل الفنى ، وبين الإيمان الذى دفع إليه وقام خلفه .. وجاء العهد المسيحى ، وظهرت الأديرة وفيها المكتبات والعلوم والأيقونات واللوحات والمخلفات الفنية ثم الإيمان الذى يضئ كل الأركان .. وأخيرًا العهد الإسلامى ، وفيه تتضح هذه الملامح على أبرز وجه : فالمساجد آية فى روعة الفن وجمال الزخرف ، وفيها حلقات الدرس وجلة العلماء العاكفين على أحياء العلم ، بكل فروعه المعروفه فى عصرهم من فلك ورياضيات ومنطق وطب ، وكل ما يحرك العقل ، وهذا جميعه مع الإيمان الذى يعمر القلب .

إن مصر فى حالة يقظتها ونهضتها حضارتها دائمًا شكل الحضارة الكاملة الجامعة لكل العناصر . إنها ليست على غرار الأمم التى تتخذ فيها الحضارة شكل الموجات ، ففى عهد تطغى موجة الإيمان ، وفى عهد تطغى موجة العقل ، عصر للروح وعصر للمادة .. مصر لا تعرف ولم تعرف فى أى حلقة من حلقات

عمرها الطويل حضارة الموجات ، بل حضارتها دائمًا حضارة التكامل وتجميع العناصر .. الروح والمادة معًا .. الدين والعلم والفن معًا .. فإذا تركنا الأمة كمجموعة ، ونظرنا إلى الفرد ، إلى الإنسان المصرى فإننا نجد تركيبه هو نفس التركيب .. وكأن ملامح الفرد صورة الملامح أمته ، أو كأن ملامح أمته تعكس صورتها عليه .

وأوضح مثل عندى لإنسان مصرى يجتمع فيه العلم والدين على نحو أثار عجبى ، هو أيضًا الدكتور سعيد ، الذى أتناوله هنا كثيرًا بالإشارة ، لطول مراقبتى له منذ لقائنا الأول فى باريس العشرينات إلى أن توفاه الله فى قاهرة الخمسينات . كان على قدر علمه وتعمقه فى بحوثه العلمية متعمقًا فى الدين ، كثير الذكر للقرآن والاستماع إلى تلاوته . وكان يذهب فى ذلك مذهب التعصب .. يقبل المناقشة بصدر رحب واتساع أفق فى العلم والمعرفة وكل شئون الدنيا ، أما الدين فلا يقبل فيه المناقشة ويؤمن به إيمان العجائز . وكنت أحيانًا أحاول استدراجه إلى الجدل العلمى فى موضوع الإيمان . فأقول له : إن العلماء أمثاله عندما

يتبحرون طويلا فى أبحاثهم عن أسرار الطبيعة ، فإنهم ينتهون إلى مجاهل تدفعهم إلى الشعور بوجود الخالق الأعظم والإيمان به . وها هو ذا أينشتين يقول فى ذلك هذه الكلمة المعبرة : « إنى أدين بأعمق التقديس لهذه القوة العجيبة التى تكشف عن نفسها فى أصغر جزئ من جزيئات الكون ! » ، فيضحك منى الدكتور سعيد ويقول ساخرًا : « أتريد أن تجعلنى أؤمن بالله إيمان صاحبك أينشتين هذا ؟.. لا ياسيدى .. أنا لا أريد أن أؤمن بالله عن طريق العلم .. علمنا هذا .. دع العلم فى ناحية والدين فى ناحية ، لا أريد الخلط بينهما .. أريد أن أعيش معهما معًا .. كل واحد بصفاته .. كمن يعايش ويحب امرأتين معًا .. كل واحدة بصفاتها فأنت تعايش وتحب الأم والزوجة معًا .. وحب كل واحدة منهما يختلف بطبيعته وصفاته . فلا خلط بينهما »..

وهكذا يسكتنى ، ولكن يبقى تعصبه وتشدده . وهو ما يضايقنا أحيانًا . جلس معنا ذات يوم صديق أراد أن يرضيه ، فقال له : إنه الآن يصلى ولا يترك فرضًا ولا نافلة ، وإن الصلاة لها

فوائد كثيرة ، وقد لاحظ أنها أفادته فى تنشيط عضلاته . فما كان من الدكتور سعيد إلا أن صاح به : « ما شاء الله !.. أتأخذ الصلاة على أنها ألعاب رياضية ؟! ». وعاصرت حادثة آثارها ذات يوم من أيام الحرب العالمية الثانية : كان يقطن شقة فى الطابق الأول من عمارة بالزمالك ، أخلتها السلطة العسكرية الإنجليزية لتسكن بها كبار الضباط الإنجليز . وكانت شقته هى الوحيدة التى تركت بغير إخلاء لصغرها وقربها من رصيف الشارع ، فبقى فيها . وكان يحلو له أن يفتح الراديو على آخره ليستمع إلى المقرئين يتلون القرآن . وكان خبيرًا بأصواتهم وأساليبهم فى الأداء ، يرقب ويصنف فى درجاتهم من الإجادة بدقة العارف المتمكن . ولم يهمه راحة الآخرين ولا مزاجهم ، كان يضع الراديو بجوار نافذة مطلة على منور مفتوح على كل الطوابق . فكان صوت القرآن يدوى فى العمارة كلها ، ويتركه فى جوف الليل يجلجل فى آذن الصاحى والنائم .. وفى ذات ليلة ، وقد ضج الضباط الإنجليز من ذلك ، صاحوا به من المنور : « كفاية !.. كفاية موسيقى ..! » فما كان من الدكتور سعيد إلا أن نهض فى الصباح وكتب بالإنجليزية

التى يحسنها خطابًا إلى قائد القوات الإنجليزية ، وخطابًا آخر إلى المندوب السامي البريطانى ، يقول فيهما إن الضباط الإنجليز الساكنين معه فى العمارة يمنعونه من مباشرة شعائره الدينية ويسمون القرآن الشريف موسيقى !... وإذا القيامة تقوم !.. وخاف المسئولون الإنجليز أن تستيقظ فتنة دينية فى البلد وروميل العدو الألمانى على الأبواب . فانهالت عليه خطابات الاعتذار ، وزاره ضباط العمارة يبدون أسفهم ، وجعلوا يسترضونه بكافة الوسائل ، فما كان يمضى يوم دون أن يهدوا إليه أجود أنواع الجبن وصناديق البسكوت ، وعلب المربى الفاخرة ، والخبز الإفرنجى الأبيض الذى كانت تجهله القاهرة وقتئذ والحرب دائرة .. فكنت أسأله أن لا ينسى أصدقاءه ، وأنا أولهم ، فيعطينى نصيبًا من الهدايا ، وأنا أقول له مازحا : « زدنى خيرات من بركات القرآن ..! ». فكان ينظر إلىّ من طرف عينه فاحصًا يختبر درجة إيمانى .. وأنا أقسم له أنى مؤمن بالله . فكان يصدقنى ويقول « أعرف أنك مؤمن ، ولكنك أحيانًا عندما تفكر .. » فأطمئنه قائلا : « إنها أجهزة ركبت فينا ولا حيلة لنا فيها .. وإذا أدرت

مفتاح الراديو سمعت صوتًا ، وإذا أدرت مفتاح الكهرباء رأيت ضوءًا .. وفى تركيبنا الآدمى جهازان : جهاز لشؤون الروح وجهاز لشؤون العقل .. وأنا أعمل بالجهازين معًا . وهذا فى دمى .. لأنى مصرى عمرى أكثر من خمسة آلاف عام .. أما غيرنا فى حضارات أخرى ، فأحيانًا يعطلون جهاز الروح والقلب فلا يسمعون صوته ويكتفون بجهاز المادة والعقل ويبصرون ضوءه .. » .

ويبدو على الدكتور سعيد الاقتناع بهذا التشبيه ، وإن لم يكن يرتاح كثيرًا إلى الكلام المنطقى فى أمر الدين . إنه يريد منى إيمان العجائز ، فى كل حين .. وأنا لا قبل لى بذلك فأنا متى بدأت التفكير لا أضمن إلى أين ينتهى بى . ولكن الإيمان الذى يريده يأتى عندى تلقائيًا ، بلا تفكير . كما أن التفكير يأتى بلا إيمان ، كلٌّ فى منطقته .. وكنا نسير معًا أحيانًا فى الطريق ، ونعرض لموضوع دقيق فأنطلق متحدثًا على حريتى ، أقلب الأمر على كل وجوهه ، تاركًا آلة التفكير تعمل بغير حدود . فيصدم ويصيح بى صيحته المعروفة : « اسكت يا زنديق ! »... فلا أحفل به وأستمر

لأرغمه على سماع ما يريد وما لا يريد ، ما دمنا فى صدد البحث الحر . إلى أن نمر بمسجد ولى من أولياء الله الصالحين فإذا به يدهش لصمتى فجأة ويلتفت فيرانى قطعت الحديث لأهمس بقراءة الفاتحة !.. فيقول لى مطمئنًا : « يعنى أنت مؤمن بقى بجد ؟! » فأؤكد له أنه لا داعى إلى القلق على إيمانى .. فهو طبيعى .. كما أنه لا داعى إلى الخوف من تفكيرى الحر ، فهو ضرورى . وإنى أكون كاذبًا لو تظاهرت بالإيمان ، كما أكون كاذبًا لو ألجمت التفكير . وإنه يجب أن يوافقنى على أن كل شىء يجب أن يقوم على الصدق .. وترن كلمة الصدق هذه فى رأسه ، فيترك التزمت قليلا ويبتسم ويروح يقص علىّ بعض ما جرى له بمناسبة الدين .

قال : إنه أراد أن يؤدى فريضة الزكاة .. فلم يدر كيف يفعل ، فقيل له : اذهب إلى وزارة الشئون الاجتماعية ، ففيها قسم مخصص لذلك ، فذهب .. فعرضوا عليه اسم شخص يستحق الزكاة ، وأعطوه عنوانه .. فمضى إليه عصر أحد الأيام فوجد منزلا فى حارة ، فدق على الباب فلم يجب أحد ، واستمر فى الدق ، ففتح الباب وظهر شخص قوى البنيان مفتول العضلات ، فى جلباب

سكروته نظيف يهفهف ، وإبريق فخار كبير يجرع منه بيد ويفرك عينيه بيد ، ويقول بعجرفة : تصحينا كده من عز النوم ؟!.. عاوز إيه حضرتك ؟.. جاى ليه ؟!.. » ، ولم يعجب الدكتور سعيد منظر هذا الرجل الذى لا يدل على مرض ولا ضعف ولا عوز ، وزاد على ذلك قلة الأدب ، فقال له : « جاى أحسن عليك !.. لكن بقى ما فيش لزوم !.. »، وتركه منصرفًا متعجبًا كيف وضع اسم شخص كهذا يلبس حرير السكروته فى قائمة المستحقين للزكاة فى وزارة الشئون الاجتماعية ؟!.. وأصر بعد ذلك على أن يبحث هو بنفسه عن المستحقين حقًا .. وكان يجد متعة فى ذلك ، بل كان يجعلها أحيانًا نوعًا من التسلية ـــ وخاصة فى شهر رمضان المبارك ـــ اعتاد أن يحيى لياليه فى منزله على الطريقة القديمة .. يأتى بمقرئين لتلاوة القرآن .. وكانا شيخين كفيفين . فإذا دق مدفع الإفطار قدمت إليهما صينية الطعام . وكان الدكتور سعيد حريصًا على أن يحضر أكلهما ، ويبَصرهما بالأصناف .. قال لهما ذات مساء : اسمعا ما أقول لكما جيدًا : فى طبق الخضر ثلاث قطع من اللحم ، واحدة كبيرة ؛ واثنتـــان

صغيرتان . من يأخذ الكبيرة عليه أن يترك الصغيرتين لزميله ، وهذا هو العدل . وجعل ينظر إلى ما هما فاعلان ، فرأى الأيدى وقد امتدت إلى الطبق فى سرعة خاطفة ، وهى تتسابق إلى قطع اللحم فتتصادم وتتشابك ، وهما يتصايحان : « حاسب يدك ياشيخ محمد !.. حاسب أنت يا شيخ أحمد ..! »، ويضطر الدكتور سعيد إلى التدخل ليخلص الأيدى بعضها من بعض ، وهو مستمتع بهذه الفرجة . كما كان يستمتع بمنظر فرحهما وهو يعلن إليهما : « النهاردة كنافة »، وفى اليوم التالى « الليلة خشاف » أو « الليلة قطايف » .. كانا يصيحان طربًا عند سماعهما ذكر هذه الحلويات : الله أكبر !. ويهزان الرقبة يمينا وشمالا .. وفى ذات يوم قال لهما إنه يحسن تحريش المعدة بصنف خشن ، وأعلن إليهما أن الطعام عبارة عن عدس ، فإذا بهما يزومان ويقطبان الجبين ويطرقان أسى .. ثم تجرأ أحدهما وهمس قائلا : « عدس ! » وردّ الآخر همسًا : « ما احنا شبعانين منه ..! »، ولكن سعيد ما كان يقصد غير الممازحة ليرى وقع ذلك عليهما . فلما عاد يصحح كلامه ويخبرهما أنه لا عدس فى

رمضان ، وأن الأصناف القادمة كلها مما تشتهى الشفة واللسان .. منها الأرز المفلفل باللحم المفروم ، والمكرونة بالعصاج ، غير المشويات والمحشوات والأملطية وقمر الدين ، علا الهتاف صاحا فى صوت واحد : « ينصر دينك يا دكتور ..! ».

* * *

قرأت خبر وفاة الدكتور سعيد فى جريدة الأهرام وأنا فى باريس ، عندما كنت مندوب مصر الدائم فى اليونسكو عام ١٩٥٩ .. لم يكن الخبر فى صفحة الوفيات ، بل من صديق له دس الخبر بين سطور قليلة فى مكان منعزل .. لأن المتوفى كان قد أوصى بأن لا يعلن عن وفاته ولا تشيع له جنازة ، فقد كان يسخر من الجنازات كما كان دائم السخرية من حياته ويقول عن وجوده فى الدنيا « كفايه كده !.. » وأذكر أنه قبل سفرى إلى باريس سألنى عن مدة غيبتى فى الخارج ، فلما أخبرته أنها مدة لا تقل عن خمس سنوات ، قال : « ستعود فلا تجدنى فى هذه الدنيا !.. » وقعت عينى مصادفة على ذلك السطر المنعزل عن وفاته ، فسقطت من عينى دمعة ..

ولما عدت إلى مصر سألت طبيبًا له عن وفاته ، فقال لى إنه كان معه قبل وفاته بيومين ، وكان فى أتم صحة ولا يشكو من مرض .. وإنه كان قد قضى اليوم السابق كله فى زيارة أولياء الله الصالحين ، والصلاة فى المساجد .. ثم توفى فجأة فى اليوم التالى ..

كان الدكتور سعيد مؤمنًا راسخ الإيمان .. أذكره دائمًا فى معمله وهو يضع كتاب الله الذى لا يفارقه إلى جانب الميكروسكوب الذى يكشف به عن أدق أبحاثه العلمية ، مما أكد عندى أن العالم المدقق لا يتعارض مع المؤمن المتعمق .. ففى الغالب لا تعارض بين الدين والعلم .. قد يحدث التعارض أحيانًا بين الدين والفلسفة .. من قديم نلاحظ ذلك ؛ فى الإسلام ربما منذ ابن رشد ، ومنذ المعتزلة وخصومهم واتهاماتهم ..

ولذلك كنت كلما اتجه حديثى مع المرحوم الدكتور سعيد اتجاها يقترب من الفلسفة قال لى فى الحال : « اسكت يا زنديق !.. » ولكنه يفاجأ على غير قصد منى بموقف أو كلام يجعله يقول لى فى دهشة : « عجيبة !.. أنت على كده مؤمن !.. » وانتهى به الأمر أن اقتنع كل الاقتناع بأنى راسخ

الإيمان .. ولكنه يستطرد قائلا « بس يعنى كلامك ده وتفكيرك ؟!.. » فكنت أوضح له : « اسمع .. أنت تقرأ دائما القرآن الكريم .. أليس فى القرآن قوله تعالى : « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ».. وهأنذا أتفكر . والتفكر إذا تعمق فيه أمثالى واجه أسئلة ومسائل ذات أعماق وأمواج لو خاض فيها مفكر أبعدته عن سطح البحر الهادئ وأظهرته فى نظر المؤمن الهادئ الذى لا يسأل فى الدين ولا يتفكر فى مسائله العويصة بمظهر غير المؤمن .. وأنا لا يهمنى المظهر ، ولكن الذى يهمنى هو إيمانى عند الله .. ويعجبنى قول أبى حنيفة : « إن المؤمن بقلبه المذعن فى نفسه يكون مؤمنًا عند الله ، وإن لم يكن مؤمنًا عند الناس ».. لأن الناس تعتبر المؤمن هو الذى يبنى إيمانه على النقل ، أى النص الثابت الظاهر .. أما من يبنى إيمانه على العقل المتحرك بأفكار غير مألوفة ، فهو الذى يتعرض للمشكلة الدائمة التى تناولها ابن تيمية فى كتابه « درء تعارض العقل والنقل »..

ولقد كان البناء على « النقل » على الدوام هو الأدعى إلى الراحة والاطمئنان وإيثار السلامة والعافية ، وهو ما يطلق عليه

« إيمان العجائز » الذى لا يعرف فى الدين المناقشة والتفكير ، وفيه راحة النفس والبال ..

ولكن ، من ناحية أخرى ، إذا طغى النقل ، وانفرد سلطانه بفرد أو أمة ، فإنه يؤدى إلى « الكسل العقلى »، ويغلق باب الاجتهاد ، ويختفى المفكرون .. فلا بد من وجود المؤمن بالنقل والمؤمن بالعقل .. والمؤمن بالنقل والعقل معًا .. والمؤمن الكامل عندى ، هو من يؤمن ويمارس الدين بالنقل والعقل معًا ، ويدرأ التعارض بينهما .. أما الدكتور سعيد ، فالدين عنده بالنقل .. أما العقل فللعلم .. رحمة الله عليك يا سعيد !...

* * *

من ملامح شخصيتنا المصرية التسامح . كل الأديان والمذاهب تعيش فى مصر آمنة جنبًا إلى جنب .. لم تعرف مصر فى تاريخها الطويل تلك المجازر الطائفية التى تسيل فيها الدماء أنهارًا على غرار ما حدث فى البلاد الأخرى . معدة مصر القوية تهضم كل شىء ولا يبقى فى النهاية غير مصر . لذلك لا نستغرب إذا رأينا كثيرًا من النذور يقدمها المسلمون إلى جانب المسيحيين لسانت تيريـز ومارجرجس ..

وعندما كنا أخيرًا فى جبال الألب سأل مرافقى ، وهو شديد الإحساس بدينه وإسلامه ، عما إذا كان فى البلدة كنيسة ، فلما دلونا عليها، صار يذهب بى كل صباح إليها ويوقد شمعة يضعها تحت أقدام مريم العذراء . كان تمثالها الذهبى الكبير وهى تحمل رضيعها والنور الإلهى يحيط به يملأ النفس خشوعا وجلالاً ، فكان يتركنى وينتحى ناحية يقف طويلاووجهه إلى السماء يبتهل إلى الله صاحب كل الأديان ..

ولكن هذا التسامح الذى جاء نتيجة العراقة وحكمة العمر الطويل عبر القرون ، ينزلق أحيانًا عندنا إلى التساهل ، التساهل هو الوجه الممسوخ للتسامح .. هو التغاضى عما يجب أن يؤخذ بحزم فى شئون العمل والحياة . ولذلك عرف عن مصر أيضًا أنها بلد « ماعليهش » ؛ يخطئ ويهمل المهمل فإذا ساءلته قال باستخفاف : ماعليهش !..

بل إن الرئيس المسئول يرى خطأ مرءوسه أو إهماله فى عمل من الأعمال أو واجب من الواجبات ، فإذا نبهته إلى ما ارتكبه المرؤوس ، قال فى شىء من التراخى : « يا سيدى ما عليهش !.. » وهذا داء خطير عندنا فى مجال الإنتاج والتقدم . إذا استطعنا أن نفصل التساهل عن التسامح ، كما يفصل العشب الضار عن الشجرة المباركة ، فإننا نكون قد احتفظنا بالنقاء والصفاء لملمح جميل من ملامح شخصيتنا . ولكن المسألة ليست بهذه السهولة ؛ فالعشب هو أيضًا لاصق بالشجرة منذ أمد طويل ، وما هو المنجل الذى يفصل بينهما ؟..

لقد أردت فى رحلتى الأخيرة أن أحجز مكانًا فى طائرة

العودة . واقتضى الأمر الحصول على بعض البيانات من مصر بيانات خاصة بالثمن المدفوع لتذكرة القيام حتى يحسب على أساسها ثمن تذكرة العودة . ذهبت إلى شركة الطيران الأجنبية فى باريس التى أحجز على طائراتها وأخبرتها بنية سفرى فى اليوم التالى ، فقالت إنها ستبرق إلى مصر بطلب البيانات ، وسيأتى الرد طبعًا فى ساعات ، وبهذا يصبح السفر ممكنًا فى الموعد الذى أردته ؛ وحررت البرقية أمامى وقرأت نصها ، ولكنى قلت للشركة بلهجة الجزم والتأكد : « ما دامت الحكاية فيها انتظار رد من مصر فأنا غير مسافر لا غدًا ولا بعد غد ولا بعد أسبوع !.. فاستغربوا قولى ولم يصدقونى . وعدت إليهم بعد يوم أسأل عن رد مصر ، فلم يجدوا ردًا وصل . وقالوا : ربما بعد يوم آخر ، قلت لنفسى : ستنتظرون عبثًا هذا الرد : إنه لن يأتى برقيتكم مدشوتة فى درج مهمل لموظف أو موظفة من طراز « ماعليهش » !.. وبالفعل مضت أيام ولم يصل رد ، وتأخر سفرى ، إلى أن اقترحت عليهم صرف النظر عن البيانات ، واعتبارى زبونًا جديدًا مستعدًا لدفع أى ثمن لتذكرة جديدة .. هذا التساهل هنا

أو الإهمال هو فى أتفه مظاهره وأقلها خطرًا ، ولكن عندما يقع فى إنتاج نصدره إلى الخارج ، فى خيط واحد ناقص من نسيج ، فإن سمعة صناعتنا كلها تصبح فى الميزان . وعندما يحدث تقصير فى الخدمة صغير بالنسبة إلى سائح ، فإن كل سياحتنا تصبح مضغة فى الأفواه . وخسارتنا هنا تصبح مادية ومعنوية إلى أبعد حد . إننا نكسب بالتسامح ونخسر بالتساهل،ومع الملمح الجميل الدمل الدميم. ولكن المطمئن فى الأمر هو أن الملامح طبيعية وثابتة ، والدمل طارئة ويمكن أن تزال ..

كان فى ظننا إلى عهد بعيد أن من ملامحنا الخاصة بنا ما يسمى بالغيبيات . ولكن أوروبا منذ مطلع القرن بدأت تظهر فيها نزعات غيبية على نحو جماهيرى . فكثرت الإعلانات فى الصحف والمجلات عن المنجمين والمنجمات . وكنت فى العشرينات أقرأ مثل هذه الإعلانات ، بغير اهتمام أول الأمر ، إلى أن حدث ما جعلنى أهتم بها ، لا بسبب عاطفى أو مرضى أو مستقبلى ، بل بسبب مضحك : سبب فنى . فقد كانت تعرض لى فى مصر بفرقة عكاشة فى ذلك الوقت من عام ١٩٢٦ أوبريت « على بابا »

وجاءنى خطاب من مصر يصف لى روعة المناظر التى عرضت بها على نحو أثار حنينى وشوق . كنت أدفع نصف عمرى يومئذ لمن يحملنى إلى مصر أشاهدها وأعود . ولكن لا طائرات وقتئذ والبواخر بطيئة ، وأهم من ذلك المال ؛ أين المال للسفر ؟!. فكنت أنام وأقوم وأنا أحلم بالمسرح والمسرحية ، كنت فى تلك الأيام ككل مؤلف شاب لا أكاد أفارق المسرح أثناء تجارب مسرحيتى ولا طول مدة عرضها . ألازم المسرح والمسرحية وأنا فى الكواليس أو الصالة أو أعلى التياترو باستمرار ، حتى اعتاد بصرى الظلام ، وأستغرب وجود الشمس عندما أخرج ساعة فى النهار . اليوم أسمع مثل هذا من مؤلفينا وأتعجب وأنسى أنى كنت قديمًا مثلهم وأشد حبًا وغرامًا وحرصًا على الالتصاق ليل نهار بالمسرح والمسرحية ، بعد أن أقعدنى اليوم الزهد والسن والضيق عن الرغبة فى مشاهده مسرحياتى حتى على مسارح أوروبا ، متحسرًا على الحماسة الفنية والنفس المفتوحة التى كانت لى فى الماضى .. ماذا أصنع إذن لأرى « على بابا » بمناظرها على المسرح وأنا فى باريس ؟! قرأت فى إعلان لإحدى المنجمات أنها تستطيع

أن تجعل الشخص يرى ما يريد رؤيته ماثلاً أمامه من خلال كرة بلورية . فأخذت عنوانها ومضيت إليها على الفور . فوجدت امرأة عجوزا فى شارع ضيق متفرع من بولفار باتنيول ، تجلس على مائدة مفروشة بجوخة خضراء فوقها كرة بلورية فى حجم البرتقالة اليفاوى ، أو أكبر قليلا . أمسكت بكفى أولا ، وجعلت تقرأ لى خطوطه وتحدثنى بكلام طويل عن حب عاطفى مستعر يبتدئ بكذا وسينتهى بكذا ، وأنا لا أصغى إليها .. كل همى والتفاتى إلى الكرة البلورية أريد أن أشاهد فيها مسرحيتى « على بابا » يتحرك فيها الممثلون : عمر وصفى ، وزكى عكاشة ، وعلية فوزى وبقية أفراد الجوق ، وتصدح فيها ألحان زكريا أحمد وتزهو بتلك المناظر الباهرة التى بلغنى خبرها !.. بالطبع لم أر شيئًا ، ولا حتى مطربنا زكى عكاشة فى حجم « عقلة الصباع » !.

تركت المنجمة يائسا ، ومرت الأيام والليالى ، وعينى تقع على هذه الإعلانات فى الصحف عن المنجمين والمنجمات ، فأخذت أفكر فى هذه الظاهرة .. كيف

أصبح التنجيم بضاعة رائجة فى باريس ؟ وظهر فى تلك الأثناء لأستاذ جامعى محترم اسمه فيما أذكر « شارل ريشيه » كتاب عما أسماه « الحاسة السادسة » يعرض فيه تفسيرات لخوارق ما كان يتعرض لها العلم من قبل !.. أتراها الحرب العالمية الأولى وما جرّت من كوارث وهزت من نفوس أثرت فى عقول الناس ، وجعلتهم يلتمسون العزاء أو الهرب فى عوالم خفية ؟ أم أنه تحول فى مجرى الحضارة الأوروبية ذاتها ، وحاجتها إلى مسالك جديدة إلى المعرفة ؟.. ربما كان السببان صحيحين .. وأحدهما لا ينفى الآخر .. وإن كان التحول الحضارى قد بدأ قبل الحرب العالمية الأولى بزمن ليس بالقصير .. وفى رأيى أن حملة نابليون إلى مصر واكتشاف حجر رشيد على يد شامبليون غَيَّر مَفهوم الحضارة وأساسها عند الأوربيين .. فقبل هذه الحملة واكتشاف العلماء لمصر كان الأساس الحضارى لأوروبا والغرب كله اليونان القديمة بمنطقها الظاهر وفنها العارى وفكرها الواضح .. فلما عرفوا مصر أدركوا أن هناك دنيا أخرى لها منطقها الخفى وفنها الغامض وفكرها الغائر فى المجهول .. ولكن تأثير مصر أخذ وقتًا طويلا ليشق له

تيارًا فى أوروبا إلى جانب التيار اليونانى .. ومهدت مصر لهم الطريق لاكتشاف أفريقيا كلها .. وخاصة أفريقيا الفن والكهانة والسحر .. وما أن جاء هذا القرن حتى كانت أوروبا قد فطنت وذهلت للقوة الخفية الكامنة فى فننا المصرى القديم ، وللمؤثرات الساحرة لفن الأقنعة الأفريقى ، بل وللقوى العلاجية لإيقاعات الطبول والرقص عند قبائل أفريقيا .. وجعلوا يدرسون كل ذلك بعناية .. وظهر تأثير الخطوط المبسطة الصارمة والكتل الحجرية المهيبة فى فن مصر على فن أوربا التشكيلى ، كما ظهر تأثير إيقاعات الطبول الأفريقية على الموسيقى ، والكهانة وسحرها على علوم النفس والتنجيم .. ومن يتابع نشاط بيكاسو وبول كليه وكاندنسكى قبل عام ١٩١٠ يجد هذه الاتجاهات والتأثيرات . ومنهم من قال صراحة إنه ذهب إلى أفريقيا ليكتشف طريقًا جديدًا لفنه .. وظهرت المدارس التى تدعو إلى الاهتمام بمعجزات الفطرة الخلاقة عند الأطفال والشعوب البدائية ، وتأثرت بالفعل بعض الأساليب الفنية الحديثة فى أوربا بهذا الاتجاه . كما جاءت المدارس السوريالية والدادية وغيرها بفكرة

تخطى حاجز العقل المنطقى والوعى الظاهر ، للنفوذ مباشرة إلى منطقة الوعى الخفى .. كل ذلك كان يدل فى عشرينيات هذا القرن على أن أوروبا فى سبيل تحول حضارى يدخل فى حسابه دراسة الغيبيات إلى جانب العقليات .. ولكن كل هذا كان يمارس على الطريقة الأوروبية .. بمعنى أن الغيبيات كانت تدرس بواسطة العقليات .. وهنا الفرق بيننا وبينهم .. إن الغيبيات عندنا جزء منا ، لا يخطر ببالنا أن نقطعه ونفصله وندرسه ، ولكنها بالنسبة إليهم شىء منفصل ، يريدون ضمه وإضافته إلى معارفهم بالدراسة والعلم والفن ..

يبدو أننا علمنا الدنيا البناء للخلود ، ونسينا اليوم أن نعلمه لأنفسنا . هذه الأهرام الباقية على مدى الزمان ، وهذه المساجد بأحجارها الضخمة منذ قرون .. شيدتها أيدينا المصرية لتتحدى الغد ، وقد تحدّته بالفعل . العالم المتحضر اليوم يفعل ذلك ، بهذه الرافعات العملاقة التى رأيتها فى أوروبا يقوم البناء العملاق المتحدى ، إنهم يبنون كأنهم يعيشون أبدا ، على الرغم من شبح الحروب وقلق الدمار ، ونحن نبنى كأننا سنموت غدًا : أبنية

هزيلة هشة توحي بالزوال . أترانا قد شبعنا خلودًا ؟!.. أو أن من خصائصنا المصرية الشعور بالبقاء ؟؟ تجده إما فى كتلة الأحجار وإما فى كتلة الشعب المصرى !.. فمصر تشعر دائمًا بقوة صمودها للزمن بكتلة أحجارها أو بكتلة شعبها . والأحجار عندما تبلى تجد من يرمها ، والشعب أيضا فى حاجة إلى ذلك . ولكن شعب مصر فى صبره الطويل على الزمن والمحن ينسى نفسه ، وينسى فكرة الترميم ، لا لحياته فقط ولكن لمبانية أيضا ، يتركها كما هى وهو يعلم أنها آيلة للسقوط . قلما تعرف أوروبا المنزل الآيل للسقوط وتتركه حتى يسقط . الصيانة هى روح البقاء عندهم . ونحن لا نعرف كلمة الصيانة . لا لصحة الجسم ولا لصحة المبنى . إن الأنفاق الجديدة المحفورة اليوم فى باريس ، للمترو أو السيارات لشىء يدعو إلى الدهشة ، ومن طولها أصبحت شوارعها تحتية . وقد أتعبنى السير فيها ، وخاصة وساق مريضة ، والنسيان قد زاد عندى فلم أحفظ اللافتات الموجهة ، فأسير وأجهد فى السير ثم أكتشف خطأ طريقى فأعود أدراجى لأسلك نفقا آخر أكثر منها طولا . سألت نفسى : لماذا كل هذه

الطـرق تحت الأرض ؟.. لا شك أنهم يخططـون للمستقبــل ويدركون أن الشوارع العادية فوق الأرض لن تكون كافية .. قد نفطن غدًا إلى ضرورة هذه الانفاق ، ولكن إلى أى مدى ستبقى كأنفاق ، ولا تنقلب إلى مباول وأكوام قاذورات ؟ من السهل أن نستعيد القدرة على البناء ، لكن هل من السهل أن نغرس روح الصيانة ؟!. وهل الشعب الذى لا يعرف الصيانة لبدنه يستطيع أن يعرف الصيانة لمبانيه ..؟! كم من الشعب من يذهب إلى الطبيب ، قبل أن يخر صريع المرض ؟!.. إن مشكلة الصيانة لهذه الأنفاق يوم تنشأ أخطر وأعسر من مشكلة البناء !..

بمناسبة مترو الأنفاق :

وتذكرنى مسألة مترو الأنفاق بحديث دار بينى وبين أحد كبار المهندسين المختصين بذلك لأنه عميد كلية الهندسة التى أسهمت فى إنشاء هذا المترو بباريس .. كان بجوارى فى وليمة رسمية يوم كنت مندوب مصر الدائم فى منظمة « اليونسكو » بباريس فى أواخر الخمسينات .. قال لى : « إن أهم شىء فى إدارة مترو الأنفاق كلمة واحدة : « الصيانة » . ويوجد فى كل محطـة

مسئول عن ملاحظة أقل مسمار ينقص ، أو باب عربة لا يغلق بمجرد تحرك هذا القطار السريع الخطر إذا نقص فيه أقل شيء ..

قلت فى نفسى : وهل كلمة « الصيانة » لها معنى فى بلد الكلمة الشائعة فيه عند كل حدث : « معلهش يا سيدى وجرى إيه يعنى خليها على الله » .. ثم تذكرة نزول الأنفاق لركوب المترو طالما الراكب تحت فى النفق فهى سارية المفعول إلى أن يخرج على وجه الأرض ، وعندئذ يبطل مفعول التذكرة .. فقلت فى نفسى أيضًا : « ومن عندنا الذى سيخرج ..؟ أكثر الراكبين سوف يمكثون تحت فى رصيف النفق ينامون ويأكلون ويشربون .. ويكثر باعة الفول والطعمية وأكواب الشاى وبوابير الجاز وربما السجاير والجوزه ، وما علمه عند الله ..! أما أصناف الركاب ، فمن منهم الذى سيحترم هذا القطار الذى تغلق أبوابه بإحكام أوتوماتيكيا وكهربيا بعد ثوان من وقوفه .. وتأتى المرأة التى تحمل قفة وتصيح : « يا اختى القطر ده ماله مسروع كده ..؟ مش يستنى لما أدخل القفة ..! » ثم كيف نتوقع أن باب عربة المترو سوف يظل موجودًا ولن يغلق أبدًا .. ومن الركاب من ينحشر

فيه أو يتدلى خارجه ، وهو أخطر شيء .. وسوف تكثر الحوادث كل يوم .. والأعطال كل ساعة ..

ربنا يستر !.. مشاكلنا كثيرة .. وربما أهم مشكلة فى مصر هى الإهمال والاتكال وعدم المبالاة وقلة احترام النظام .. وضياع كلمة « المسئولية » عند الرئيس والمرؤوس على السواء .. إذا عالجت مصر هذه المشكلة فإنها تعود إلى عظمتها الخالدة الكائنة فى أعماق شخصيتها ، « وشخصية مصر » و « عودة الروح » إليها ليست مجرد كلمة .. بل فعل وإرادة وكفاح ..

هناك نوع من الصيانة نعرفه .. وربما اعتبر من خصائصنا المصرية . ذلك هو صيانة عاداتنا من التغيير السريع ، نجد ذلك فى بعض المطاعم القديمة الشهيرة كما نجده فى عيادات بعض الأطباء القدماء المشهورين .. كنت فى الشتاء أذهب مع جماعة من الأصدقاء يوم الجمعة من كل أسبوع لنتناول طعام الغداء فى مطعم شعبى للشواء أى الحاتى فى حى من أحياء القاهرة الشعبية . بعض هذه المطاعم معروف من عشرات السنين ، ومزدحم دائمًا بالزبائن من شتى البلاد ، وأحيانا من السائحين الأجانب ، وهو

قلما يغير من مظهره ، كأن الدنيا واقفة منذ أول إنشائه ، لا يخطر بباله أن يغير مرة من لون مناشفه أو مفارشه أو حيطانه . وجدت ذات يوم هذا المظهر فى عيادة طبيب كبير : المقاعد والأثاثات والأبسطة العتيقة الممزقة يغطيها التراب . كل شىء عتيق ومترب مهمل وكأن العنكبوت ينسج خيوط التاريخ القديم على المكان ، فيوحى إليك أنك فى عيادة الطبيب الخاص لآدم عليه السلام .. سألته مرة فى ذلك فقال إنه يستبشر بهذا ويتفاءل ، لأن العيادة على هذا النحو من قديم جاءت له بالنجاح ، وإنه يتشاءم من أى تغيير .. ولست أدرى ما هى الصلة بين النجاح الأول وبين الوقوف عنده بلا تغيير !. أقارن هذا بما حدث لنا أخيرًا فى باريس ؛ رأينا فى أحد المتاجر الشهيرة قطعة قماش معروضة فى مكان من المحل أعجبت مرافقى وأراد شراءها ، ولكنه تردد لارتفاع سعرها وأحجم وانصرفنا . ولشدة تعلقه بها شجعته على شرائها ، وذهبنا فى اليوم التالى لنبحث عنها فى موضعها حيث تركناها ، فوجدنا المواضع كلها قد تغيرت ، والمعروضات قد اتخذت شكلا جديدًا . وعبثا حاولنا العثور عليها . هكذا بين يوم

وليلة تتغير أوضاع المحل ؟! نعم . قالت لنا البائعة : لا بد أن تقع عين الزبون على شكل جديد فى كل يوم . وصرت أسائل نفسى : هل الأشكال الجديدة هنا نتيجة للحركة السريعة فى الفكر والخيال ؟. أو أن سرعة الإيقاع للفكر والخيال فى هذه الأمم هى التى تستوجب التغير المستمر فى الأشكال ؟. شىء آخر لفت أنظارنا : هذه الأشكال نفسها ما هى إلا وليدة خيال وذوق وفهم .. ذهبنا لتناول طعام الغذاء فى مطعم متخصص فى اللحم البقرى المسلوق بالخضر مع الملح المجروش ، أو ما نسميه عندنا فيما أظن بالملح الرشيدى . دخلنا فوجدنا المحل عجيبا بالديكور الذى اتخذه ؛ فسقفه عبارة عن جلد البقرة ، وعلى الحيطان رسم بارز رائع لبقرة كبيرة ، وثريات الكهرباء من قرون البقر .. وكنا قبل ذلك قد دخلنا مطعما اسمه « عربة البريد ». تلك العربة الكبيرة التى كان يسافر بها الناس قبل اختراع السكك الحديدية . فوجدنا ديكور المحل يتكون كله من هذه العربة ، وكأننا جميعا داخلها يظللنا « كبوت » العربة الضخم ، ويضئ لنا النور من فوانيس كبيرة هى فوانيسها ، وتتدلى الشموع من عجلاتها ..

وحتى سوط السائق و ألجمة الخيل وما يوضع على ظهورهـا وعيونها ، كل ذلك يتكون منه الديكور ، على نحو بديع يثير الخيال . وهكذا فى كل مطعم أو مكان نجد الخيـال الخصب والذوق البديع والأشكال الموحية قد سبقتنا .. لم يعد الأمر مجرد طعام يؤكل ولا بضاعة تقدّم ولا مصلحة تقضى ، بل أيضا متعة الجو الذى ينسج حولك بذوق وفهم وذكاء .. وهذه أيضا أدوات السياحة لكل بلد يريد أن يستقدم زوارًا وسائحين .

ولكن هذه الأشياء أين نجدها ؟ ومن يعلمنا إياها ؟.. الحقيقة أن مصر كانت تملكها وتعرفها على مدى تاريخها فى فترات يقظتها وحضارتها .. وهى التى أشعرت العالم بفن معابدها ونقـوش مساجدها وما لا يحصى من تماثيلها وأوانيها وتحفهـا ، وكان المصرى هو الفنان الذى يخلقها ويبدعها ، وهو الشعب الذى يشاهدها ويتذوقها .. أين ذهب إذن هذا المصرى ؟!. هل خنقه الاحتلال الأجنبى الطويل وأنساه الخلق والابتكار ، وأعطـاه تعليما يجعل منه فقط العامل اليدوى والموظف المكتبى . وكل تعليم يكتفى بصب المعلومات لن يؤدى إلى خلق وابتكار . وأهـم

دعامتين لكل خلق وابتكار هما الذوق والخيال . إنى أحفظ كلمة للعالم أينشتين أعجبتنى وأدهشتنى ، قال ما نصه : « إن الخيال أهم من المعرفة ».. حقا إنها كلمة عجيبة وخاصة من رجل علم مثل أينشتين !.. ترى ماذا يقصد ؟! وجعلت أفكر فيها مليا ؛ أتراه يقصد أن الخيال آلة متحركة ، والمعرفة رصيد ثابت ؟.. الخيال حركة والمعرفة سكون ؟!. أو أنه يقصد أن الخيال هو الدينامو المحرك لاجتذاب المعرفة ؟! أغلب ظنى أن هذا ما يقصد ، فقد قرأت له فى مجال آخر قوله إن الكثير من اكتشافاته العلمية يرجع إلى الخيال والتخيل فى مبدأ الأمر .. إذن حتى فى نطاق العلم البحت لا بد من الخيال ، لكن كيف نرى الخيال ؟!.. الجواب نجده عند أينشتين نفسه ، فقد كان من أهم هواة الموسيقى ، يعزف بيده على بعض آلاتها ، ويتذوقها أحسن التذوق ، وله آراؤه الخاصة فى باخ وموزار .

ولا أنسى أيضا فى هذا المقام عالمنا المصرى العالمى الذى قيل إنه أحد عشرة فى العالم وقتذاك تعمقوا وتابعوا بالبحوث معادلات أينشتين ؛ إنه المرحوم الدكتور مشرفة ، لقد كان من هذا الطراز

كما تكشف لى من رسائله إلىّ وأحاديثه معى فى الأدب والفن .. إذن علينا أن نستنتج من ذلك قيمة الفنون والآداب فى تنمية هذا الخيال اللازم فى كل خلق وابتكار ، حتى فى ميدان العلم النظرى والتطبيقى ، بل وعلى الأخص كما قال لنا أينشتين فى مجال العلم وبحوثه واكتشافاته .. وهذا يفسر لنا معنى اكتمال الحضارة فى كل أمة وعصر .. إن روح الخلق نجده فيها ساريًا نابضًا فى كل فروع الشجرة الحضارية المثمرة : فى العلوم والفنون والآداب والتذوق العام . كما أن الروح الخامده نجدها فى الأمم المتخلفة أحملت كل فروع شجرتها الذابلة ، فأدّى عقم الخيال إلى ضمور التفكير وفساد الذوق العام ، وعندما يفسد الذوق العام ، كما يفسد الدم فى الجسم ، وتظهر الأعراض فى صورة هبوط فى مستوى الوعى وشحوب فى وجه الفكر ، نتيجة الطعام المبتذل والغذاء الناقص فى قيمته المرتفعة الذى يقدَّم إلى الشعب ، فإن العلاج هو فى عملية تغيير الدم ، بأن ينقل إليه دم يحوى من قيم التغذية الحضارية أدسمها وأعلاها مما يعيد إلى الجسم حيويته وكفاءته ويسترد صحته وقوته ويتوهج من جديد خياله وروح ابتكاره ويلحق بالحضارة

المستيقظة حوله ، فتراه بعد نومه متخلفًا ، قد هب جالسًا إلى جوارها ، يتعاون معها فى السير بالإنسانية نحو التقدم ..

* * *

قضينا ليلتنا الأخيرة بباريس فى فندق ، رضى بإقامتنا فيه ليلة واحدة كالعادة فى هذا الموسم الغريب !.. ووجدت موضوعًا على مائدة الحجرة كتابًا جيد التجليد هو الكتاب المقدس ، وعندما هممنا بالرحيل فى الصباح أردت حمل هذا الكتاب معى ، فقال لى مرافقى إنها سرقة ! فقلت إنهم يريدون منا أن نسرقه . وكنا قبل ذلك قد وجدنا فى أحد الفنادق كتابًا به كل ما يمكن زيارته فى باريس من متاحف ومعارض ومسارح ومراقص ومطاعم ومتاجر . وقلت : إنه ما دامت قد تركت مثل هذه الكتب للنزلاء فقد وضع فى الحساب والاعتبار أن يأخذوها . وفى أخذها ونشرها بين ذويهم فى مختلف البلاد فوائد معنوية لا تقاس إلى جانبها الخسارة المادية . إن حبس المعرفة والثقافة لبلد من البلاد عن الانتشار وغزو العقول فى البلاد الأخرى وتكبيلها باستمارات — س ح و ط ظ — لهى نظرة ضيقة لا ترى غير

الجانب المادى لأشياء هى فى جوهرها وأثرها البعيد فوق مستوى المادة .. على كل حال لم أحمل شيئًا من هذه الكتب المتروكة ما دامت هناك شبهة سرقة .

وحزمنا حقائبنا وقمنا إلى المطار .. وقامت بنا الطائرة إلى جنيف . وقالوا فى المذياع إننا سننتظر فى جنيف قليلا إلى أن تقوم الطائرة إلى القاهرة فى الساعة الثانية . وفهمت أنا ، خطأً ، أن الانتظار فى جنيف هو لمدة ساعتين ، وإذا بى أتلكأ وأنفق الوقت فيما لا طائل تحته ، وإذا بى أسأل عن طريق المصادفة البحتة موظفة الاستعلامات عن موعد قيام طائرة القاهرة بالضبط ، فدهشت وقالت : ما الذى أخَّرك للآن ؟ إنها قائمة فى التو واللحظة ، أسرع ، أسرع قد تلحقها وقد لا تلحقها .. فكدنا نصعق وانطلقنا نجرى كالمجانين ، ومرافقى المسكين يحمل عنى ما أنوء به من حقائب صغيرة وأنا أعرج بساق .. وما أن وصلنا إلى آخر باب حتى وجدنا المسافرين كلهم قد خرجوا .. ونحن آخر الفوج جئنا نلهث .. وإذا بنا نجد أنفسنا فى أيدى موظفين على وجوههم الريبة ، فتناولونى بالتفتيش الدقيق خلف أستار ، يتفحصون

جسمى وأنا أقول لهم : « هل تتوقعون أن تجدوا معى قنابل ومسدسات وقدرة فى مثل سنى على خطف الطائرات ؟!.. » وحدث لمرافقى ما حدث لى من فحص لكل ما يحمل ، حتى علب فرش الأسنان !.. وتركونا آخر الأمر نصعد إلى طائرة القاهرة ، بعد أن تصبب منا العرق مدرارا .. ولست أدرى ما الذى جعلنى أتذكر فجأة حادثًا لى مع بعض السلطات منذ ما يقرب من ربع قرن .. كنت أريد السفر إلى فرنسا ، وجهزت كل أوراق ، ولم تبق سوى تأشيرة القنصلية الفرنسية ، وإذا بالقنصل يرفض إعطائى هذه التأشيرة ، التى لا بد منها لدخول فرنسا ، ولم أدر ما السبب ؟. وقيل لى اذهب إليه لتتحرى الأمر ، فذهبت وقابلته وسألته ؛ فأخرج ملفًا من درجه وجعل يعدد التهم ؛ قائلا : أنت فى عام ١٩٤٣ كتبت مقالا عنيفًا ضد فرنسا بعنوان « خيبة أمل » قلت فيه إن أملك خاب فى فرنسا التى تطأ بأقدامها استقلال شعب صغير الخ .. فتذكرت المناسبة : كان ذلك على أثر اعتداء السلطة الفرنسية فى بيروت على استقلال لبنان ، واعتقالها يومئذ رئيس جمهوريته ووزراءه ونوابه !.. قلت له : ألا يستحق مثل

هذا الاعتداء على كرامة شعب شقيق أن أكتب فيه مثل هذا المقال ؟!.. فلم يلتفت إلى قولى ، واستمر ينظر فى الملف ويقول : ثم حدث بعد ذلك أنك أهنت فرنسا برد نيشان إليها ، كانت قد أهدته إليك بمناسبة ترجمة مؤلفاتك إلى الفرنسية عام ١٩٣٨ .. وهنا تذكرت أيضًا المناسبة ، كانت على أثر اعتداء فرنسا على تونس . وكانت مذابح وضحايا ، وتكونت فى مصر لجنة من الهلال الأحمر رأت الذهاب إلى تونس بالأدوية اللازمة للجرحى . وإذا بالسلطات الفرنسية هناك ترفض دخول هذه اللجنة المكونة من أطباء مصريين يحملون الدواء ..

قلت للقنصل : ألا تريد منى أن أغضب لمثل هذه الاعتداءات على شعوب هى لنا بمثابة الشقيقات ؟.. ضع نفسك فى مكانى .. ألم تغضبوا يوم اعتدى الألمان على استقلال بلجيكا ؟! فأطرق قليلا ، وبدا عليه حسن الفهم . ولكنى أنا عجبت لنفسى ؛ ما الذى كان يغضبنى هذا الغضب !!. أنا لم أكن يوما من حملة الشعارات ، لا للوحدة العربية ولا لغيرها من مواقفنا المصرية .. إنى أتصرف دائما من وحى شعورى التلقائىّ ونظرتى الخاصة .

إذن غضباتى صادقة ، لأنها نابعة منى وحدى . ونظراتى أيضا ، لأنها صادرة من تقديرى وحدى . وما دمت دائمًا صادقًا مع نفسى ، وهى المنبع عندى ، فالأمر إذن حقيقى . وإذا كنت أغضب تلقائيًا لما يمس أى شعب عربى ، فمعنى هذا أنه لا بد أن يكون هناك شيء مشترك .

عندما أقول إن اسمى هو توفيق الحكيم فإن كلمة الحكيم هى الاسم المشترك الذى يقاسمنى فيه أبى وابنى وشقيقى . ولكن اسم توفيق هو شخصيتى أنا .. وجودى .. تجاربى .. تاريخى .. قدراتى .. عيوبى .. ظروفى .. لن أتخلى عن اسم توفيق الذى هو نفسى . ولا أنسى اسم الحكيم الذى هو اسم الأسرة التى أنتمى إليها .. اللقب هو الإنتماء ، والاسم هو الشخصيه ..

وعندى أن الوحدة كالوردة نحبها ونشمها ولا نفركها بأيدينا .

ولا ينبغى أن يفهم من الكلام عن « الشخصية » لأى بلد عربى ما يمس « الوحدة العربية ». فالعرب اسم العائلة الكبرى التى تضم من الأخوة المختلفين والأشقاء ما يختص كل منهم بشخصيته وصفاته وظروفه ومصلحته وطبيعة أرضه

وتاريخ ظهوره : فمنهم المصرى والسودانى والعراق والسورى والسعودى والليبى واللبنانى والتونسى والمغربى والأردنى والكويتى والخليجى الخ . فالسمات والملامح وظروف الحياة واختلاف الأمزجة ووجهات النظر لهؤلاء الأشقاء ، وتفاوت درجات النشاط والإنتاج المادى والمعنوى .. كل ذلك لا يمس الصفة الشاملة التى تجمعهم كلهم فى كيان « الأسرة الكبرى » التى تنطق نفس اللغة ..

* * *

العوالم(*)

إلى
« الأسطى حميدة الإسكندرانية العالمة المغنية
عازفة العود ، أول من علمنى كلمة « الفن » ..

---

* المقصود هنا بطائفة « العوالم » فى مصر هى جماعة مطربات الأفراح التى كانت معروفة منذ أول القرن وقبله .. وقد انقرضت اليوم .

كتبت هذه الصورة الوصفية فى باريس بشارع « بلبور » عام ١٩٢٧ ..

قبيل قيام القطار من محطة مصر بنحو خمس دقائق نزل الحاج محمد المطيب(*) من عربة الدراجة الثالثة ، ووقف على الرصيف بجوار النافذة .. يجفف عرقه ويسعل سعال « أصحاب الكيف » الذين يعيشون بأنفاس التعميرة .. ثم صاح :

ـــ يا ألله .. رمضان كريم ..

وسعل سعلة انتهت ببصقة كبيرة .. وألقى نظرة اطمئنان سريعة على الأسطى حميدة وجميع أفراد التخت .. وقد . انحشرن فى مقعدين متقابلين بطرف العربة .. تتوسطهن صرر الآلات .. ثم قال :

ـــ أدينى بلا قافية رستأتكم فى ركن معتبر .. خليكم بقا كده باذن الله لحد محطة سيدى جابر ..

فرفعت الأسطى حميده يديها إلى السماء بقوة ..

ـــ شيلله يا سيدى جابر .. الفاتحة يا ولاد لسيدى جابر ..

فصاح الحاج محمد بسرعة :

(*) المطيب : كلمة كانت تطلق على متعهد حفلات الأفراح لطائفة « العوالم » .. ولا وجود لها اليوم .

— بس حاسبى .. بلا قافية إيدك حاتوقع الرق من فوق الصرة على العود تنقطم رقبته ..

— شر بره وبعيد .. شيلله يا سيد جابر .. إلهى يجبر بخاطرنا بسره الباتع .. إلا يا حاجة محمد .. دى المستعجلة دى ولا المقتخر ؟..

— المستعجلة .. هو من غير مؤاخذة المفتخر يبقى فيه « ترسو » ؟.

— هلبت على كده ما نطب هناك بعد مدفع الفطور ..

— على ابو التسعين ، حاتلاقوا حد من طرف بيت الفرح مستنظركم على المحطة .

وعندئذ رنت ضحكة سخرية من سُلّم « الرقاقة » العاجزة أردفتها بقولها :

— وان ما كانش حد فى استنظارنا يا ادلعدى .. دى ساعة فطار وكل من كان همه فى بطنه ..

فالتفتت إليها الأسطى حميده وقالت :

— النبى تتسدى وتحطى على ميلتك برش .. العلوان معايه ..

فابتسم الحاج محمد وقال :

ـــ براوه عليك يا اسطى حميده .. أهو بلا قافية إن ما كانش حد فى استنظاركم أديك معاك العلوان ..

وكأن الأسطى حميده بجلالة قدرها لم تفكر فى العنوان إلا فى هذه اللحظة .. ذلك لأنها أخذت فجأة تبحث عنه فى ملابسها وفى صدرها .. ثم التفتت إلى فاطمة الرقاصة وقالت بقلق :

ـــ بت يا فاطنة .. الورقة اللى اديتها لك فين ، واحنا فى الحنطور ؟..

فأجابتها : ما هى ملفوف فيها الصاجات ..

فدقت الأسطى حميده على صدرها صارخة :

ـــ صاجات يا بت .. ؟ الورقة اللى فيها العلـــوان إلهى يسخطك .. فتجهم وجه الحاج محمد قليلا وقال ..

ـــ بقا بلا قافية مش عارفين تستحرصوا على حتة ورقة ..؟

وهنا دق جرس المحطة الأولى ، فصاح جميع أفراد التخت فى وقت واحد بغير نظام ولا ترتيب :

ـــ نشوف وشك فى خير يا حاج محمد ..

ولكن الحاج محمد أشار إليهم بالسكون :

ـــ هس .. لسه .. هس .. سمع .. لسه فاضل كان من غير مؤاخذة جرس .. ثم سعل وبصق وصاح :

ـــ يا الله .. رمضان كريم ..

فقالت الأسطى حميده وهي تبتسم بخبث :

ـــ بحق يا حاج محمد .. دا انت صايم .. إلهي يصبرك ...

فلم يجب الحاج محمد .. ولم يتنبه إلى ابتسامات الخبث والسخرية التي تبودلت بين جميع أفراد الجوق . واستمر يتمتم بذكر الله والصيام .. ثم رفع رأسه وقال :

ـــ بقا فهمتم بلا قافية تعملوا إيه فى محطة سيدى جابر ..؟ تسألوا على بيت محمد بك قطبى زى اللى مكتوب فى الورقة .. محمد بك قطبى من أعيان اسكندرية ألف من يدلكم عليه ..

وفى هذه اللحظة صفر القطار فصاح الحاج محمد .

ـــ هه .. يا جماعة .. مش لازمكم حاجة ..؟

فصرخت سُلم الضريرة :

ـــ حاج محمد .. يا حاج محمد .. لازمنا قلة ميه ..

فأجاب الحاج محمد منتهرا :

— قلة ميه إيه .. احنا فى رمضان يا وليه .. اتقى الله واختشى على عرضك ..

فهزت نجية الطبالة رأسها وقالت :

— حِكم .. بقا الميه يا حاج محمد ولا التعميرة ؟!..

فصاح الحاج محمد بغضب :

— تعميرة إيه يا مره ..؟ وحق صيامى ...

فقاطعته نجية :

— صيامك ..؟ صيامك أنهو ده يا روحى ؟.. ما تقولش كده امال .. دانا شايفاك بعينى الصبح فى إيدك الجوزة وقاعد تكح وتنبر !..

وأراد الحاج محمد أن يتكلم فقاطعته الأسطى حميده مغيرة مجرى الحديث فضًا للنزاع .. وقالت بعد أن غمزت الطبالة نجية بطرف عينها :

— الحاج محمد صايم زى مانا صايمه .. فضكم يا ولاد من السيرة الغبره دى .. فضكم .. قطيعه .. آه .. حاج محمد ..

يا حاج محمد .. شوف يا ختى .. نسيت اقول لك .. يادى الحوسه .. الأرانب أمانة فى رقبتك يا حاج محمد .. ما تنساش ترمى للأرانب فوق السطح قشر العجور .. أمانة علىيك .. السيدة فى ضهرك ! ..

وهنا دق الجرس الأخير .. وعلا الضجيج من كل جانب ..

وتحرك القطار بين صياح أفراد التخت :

— نشوف وشك فى خير يا حاج محمد ..

وبين صياح الحاج محمد :

— مع السلامة ..

واختلطت هذه الأصوات بعضها ببعض ، حتى لم يعد فى مقدور الحاج محمد ولا غير الحاج محمد أن يميز كلمة « الأرانب » أو جملة « نشوف وشك فى خير » من بين هـذه الأصوات المختلطة .. ومع ذلك استمر فى هذا الصياح الغريزى كل من الطرفين .. كأنما كل يصيح للصياح نفسه ، إلى أن ابتعد القطار .. وعندئذ هدأ كل لنفسه .

جلس أفراد التخت برهة من الزمن فى سكون عميق ؛ كأنما

فراق مصر — ولو لمهمة قصيرة المدى أدخل على نفوسهن أثرًا محزنا ووحشة مؤثرة .

لم يقطع هذا السكون القاتم غير صوت سلم الضريرة قائلة :

— يوه .. شوف يا ختى نسينا نقول للحاج محمد يشترى لنا دخان .. بقا هو بسلامته باكه السمسون اللى معانه حايكفى طول النهار ؟!..

فلم يجب أحد .. واستمر كل فى سكونه وإطراقه ..

وأخيرًا رفعت الأسطى حميده رأسها قليلا وتنهدت ثم قالت بتأثر :

— يا حبيبتى يا مصر !!..

وكأن هذه الجملة كانت تعبر تماما عن إحساس الجميع ، فأطرق الكل لحظة ..

ثم بدأ كل يرفع رأسه وينظر حوله ؛ ليرفه عن نفسه .. فقالت سُلم العاجزة :

— كلها بكره وترجع تانى لبلدنا ..

وقالت نجية « الطبالة » بابتسام وعيناها ترمقان المقعد التالى :

— وهى اسكندريه وحشة ؟.. والنبى اسكندريه روح ..

وقالت فاطمة « الرقاصة » وعيناها كذلك ترمقان بدلال المقعد التالى الملاصق :

— اسكندريه مريه ، وترابها زعفران ..

وهكذا أخذ يسرّى عن الجميع .. وتتلاشى آثار الوحشة .. فعاد الصفاء إلى وجه الأسطى حميده ، وقالت :

— سلم .. لفى لى سيجارة ..

تناولت سُلم عليه الدخان ، وجعلت « تلف » سيجاره ، بينما أخذت الأسطى حميده تلتفت حولها متصفحة وجوه المسافرين ، ثم نظرت إلى فاطمة ونجية ، وقالت بتهكم :

— حسره وندامه على دول ركاب !

* * *

أصابت الأسطى حميده.. فى الواقع أغلب الركاب كانوا من الصعايده والفلاحين.. ومع ذلك فإن الأسطى حميده، بعيونها الكحيلة، لم تلمح خلفها أصحاب المقعد التالى الملاصق.. أصحابه أربعة: ثلاثة أفندية، ورابع يرتدى «بنش» وطربوشًا..

وإذا أرادت الأسطى حميده أن تعرف أكثر من ذلك فلتعلم أن هؤلاء الأربعة من حين أن تحرك القطار لم يفتروا لحظة عن النظر إليها ، وإلى هيئة التخت ، ما عدا سُلم « العمياء »..

وإذا أرادت الأسطى حميده إفصاحا فلتسل عيون نجيسة وفاطمة ..

لفت « سُلم » السيجارة ، ثم دقت على صدرها قائلة :

— يوه .. يا ندامة الشوم .. ما معناش كبريت !..

وفى هذه اللحظة ظهر مفتش التذاكر ، ودق على جدار العربة « بكماشته » وصاح :

— تذاكر قليوب ؟..

فصاحت سلم وهى تدير وجهها نحو مصدر صوت المفتش :

— حضرة المفتش .. ما معاكش كبريت .. إلهى ما تغلب لك وليه ؟!..

فأجاب المفتش ببرود :

— كبريت إيه !..

فقالت الأسطى حميده متلطفة :

— ما تآخذناش .. بس نولع السيجارة ..

فقال المفتش بتحفظ ، وبغير أن يلتفت نحوهن :

— انتم فاطرين رمضان والا إيه ؟..

وكان قد وصل إلى المقعد التالى الملاصق فسرعان ما تنحنح « لابس البنش » ورأى الفرصة سانحة للكلام فقال :

— القطار مباح لأهل الحظ يا سيدنا المفتش !..

فلم يجب المفتش .. بل لزم بروده وتحفظه .. وجعل يؤدى أعمال وظيفته بجد جاف .. إلى أن ابتعد .. فقالت الأسطى حميدة :

— يا سم على ده مفتش !..

فردت فاطمة وهى تنظر إلى الأفندية أصحاب المقعد الملاصق :

— يا ختى حقا .. ماله إنطْ كده ومتعنطظ بعيد عنك ؟!..

فتنحنح « لابس البنش » وقال :

— ما هو اللى زى ده — من غير مؤاخذه — فاهم نفسه الحكومة ..

فصادقت فاطمة على كلامه .. ثم أخذ الجميع ، « العوالم » من جهة و « الأفندية » من جهة أخرى ، يتحدثون لحظة على حساب هذا المفتش .. إلى أن قال أحد الأفندية :

ـــ جرى خير .. الحمد لله ..

وقال الثانى بلطف :

ـــ الكبريت معانا يا ستات ..

وزاد الثالث :

ـــ ومعانا سجاير كمان ..

ثم تنحنح « لابس البنش » وقال :

ـــ حضرتكم نازلين فين .. ولو فيها رزالة ؟..

فردت سُلم بسرعة كأنها مغتبطة بمعرفة هؤلاء الذين معهم الكبريت والسجاير :

ـــ سيدى جابر يا ادلعدى ..

فصاح الرجل :

ـــ زينا بقا .. سكه واحده انشاء الله .. احنا نازلين اسكندرية ..

وأضاف أحد الأفندية :

ـــ الليلة بإذن الله نصلي التراويح في سيدى أبو العباس ..

وتنحنح « لابس البنش » مرة أخرى ثم قال :

ـــ أظن حضرتكم مسافرين في فرح ؟..

فقالت الأسطى حميده بعظمة وتفاخر :

ـــ أيوه يا فندم .. فرح اسم الله عليه محمد بك .. محمد بك .. إيه يا بت يا فاطنة ؟..

فردت فاطمة بسرعة :

ـــ محمد بك قطبي ..

فنظرت الأسطى حميده إلى الأفندية وقالت :

ـــ محمد بك قطبي .. من أعيان اسكندرية على سن ورمح ..

ـــ أنعم وأكرم ..

وأردف أحد الأفندية :

ـــ محمد بك قطبي .. أظنه راجل كبير ؟!..

فأجابت سُلم العاجزة :

ـــ العريس ؟.. لا وحياتك إلا حتة جدع خفة مشلبن يشفي العليل !..

فالتفتت إليها نجية قائلة :

ـــ انت يعنى شفتيه ؟؟!!..

فردت سُلم :

ـــ الحاج محمد كان بيقول العريس جدع صغار ..

وفى هذه الأثناء أخرج أحد الأفندية من جيبه علبة السجاير وأدارها على أفراد التخت ، وقال وهو ينظر إلى فاطمة « الرقاصة » :

ـــ أظن الست الصغيرة هى اللى حاتلم النقطة ؟؟..

فأجابت فاطمة بدلال :

ـــ أيوه يا فندم ..

وقال آخر وهو ينظر إلى نجية :

ـــ الست امال إيه ؟..

فأجابته بابتسام :

ـــ دَرَبكة يا فندى ..

وقال الثالث « لابس البنش » للأسطى :

ـــ إحنا من حق بدنا نتشرف بالإسم الكريم ..

فأجابت الأسطى حميدة بخيلاء :

— حميدة المحلوية .. واسأل فى حتة باب الخلق ألف من يدلك ..

فقال الجميع باحترام :

— أنعم وأكرم ..

ثم قال أحدهم وهو يشير إلى العود :

— حضرتك بقا الأسطى العواده ؟..

فأجابت :

— أيوه يا فندم ..

فتنحنح « لابس البنش » وقال :

— ما شاء الله .. ما شاء الله .. العود سلطان الطرب .. يا سلام !..

وقال آخر :

— معلوم .. دا أبو المغنى والحظوظ ..

ثم صمت الجميع لحظة .. قطعتها سُلم بقولها :

— يعنى ما حدش سألنى أنا رخره ابقى إيه ؟!..

فارتبك الرجال وخجلوا قليلا ، وتمتموا باعتذارات واهية .. ثم أراد أحدهم التخلص من هذا الموقف ، فأخرج من جيبه علبة السجاير وأدارها من جديد على أفراد التخت .. غير أن سُلم بعد أن مدت يدها وتناولت سيجارة قالت عابسة :

— بس .. كتر خَيرك يا فندى .. إحنا مـا نشربش غير « سمسون » فرط ماركة الغزالة !..

وهنا كان القطار قد وصل إلى محطة قليوب ، فأبى الأفندى إلا أن يشترى لسُلم باكه سمسون من المحطة ..

ما غـادر القطـار محطـة قليـوب حتـى كانت العلاقـة قـد استحكمت تقريبًا بين أصحاب المقعد التالى الملاصق وبين هيئة التخت .. فتنحنح « لابس البنش » وقال :

— بقى يا أسطى حميده صلى على النبى ..

فقالت :

— اللهم صلى وبارك عليه ..

فاستطرد « لابس البنش » :

— بق احنا ولا مؤاخذة ناس صايمين ، والصايم له الحق فى

التسالى .. والا انا غلطان ؟!..

وأردف أحد الأفندية :

ـــ والله تكسبوا فينا ثواب !!..

ـــ لا .. وكمان يبقى زكا عن فطاركم ..

فأجابت الأسطى حميده وهى تزجج حاجبيها بعود ثقاب :

ـــ صوتى مبحوح شويه ..

فقال « لابس البنش » :

ـــ صوتك المبحوح ده سلطان الطرب ..

وقال أحد الأفندية :

ـــ أنا عايز اسمع « فى العشق قضيت زمانى » لأن نعيمه المصرية ..

فقاطعته الأسطى حميده صائحة باحتقار :

ـــ يا دهوتى .. نعيمه المصريه تعرف تقول « فى العشق قضيت » !!!..

فقال الأفندى بخبث :

ـــ ما أنا بقول كده برده ..

وهزت سُلم رأسها .. ثم قالت :

ـــ يا حضرة الافندى اللى يسمعنا ما يسمعش نعيمه المصريه ..

فأجاب الأفندى :

ـــ أيوه .. ما هو أنا ناوى ما اسمعهاش ..

وصادقت الأسطى حميده على قول سُلم برأسها ثم صاحت بحماس وخيلاء :

ـــ قولى له .. قولى له أنا مين ؟!.. دا انا حميده الحلويه يا مزغرطات ..

فصاح « لابس البنش » باحترام :

ـــ مفهوم يا فندم .. ونِعْم ..

وفى أثناء حماس الأسطى حميده انحدر رأس « ملايتها » بدون أن تشعر ؛ فظهر « الصفا » الذهبى البراق الذى يزين شعرها ، كما ظهر منديل « الترتر » فى مقدم رأسها يخطف الأبصار .. وتنبه الرجال إلى ذلك ، فأخذوا يختلسون النظر إلى شعرها بين فترة وفترة .. ولاحظت ذلك منهم فاطمة « الرقاصة » فأسرعت

بتنبيه الأسطى مخاطبة إياها باللغة الاصطلاحية بين « العوالم » :

ـــ « إطسا .. يا إطسا .. أفصك نايب ».. أى « أسطى .. يا أسطى .. صفاك باين .. »

ولكن الأسطى لم تسمع أو لم ترد أن تسمع ، متشاغلة بتزجيج حاجبيها بعود الثقاب .. ولاحظت نجية « الطبالة » أيضًا نظرات الرجال إلى شعر الأسطى ؛ فسرعان ما انضمت إلى زميلتها فاطمة فى تنبيه الأسطى :

ـــ « إطسا .. أفصك نايب يا ختى » ..

فلم تنتبه الأسطى .. وانتبه أحد الأفندية إلى هذه الجملة الغريبة .. فلم يفهم معناها ، وقال :

ـــ إطسا .. إطسا دى فين ؟.. دى وجه قبلى ..

فقال « لابس البنش » :

ـــ لا لا .. دول بيضربوا بالسيم ..

واشتدت حدة فاطمة لتغافل الأسطى حميده ولنظرات الأفندية لشعر الأسطى ؛ فصاحت بغيظ :

ـــ يا ختى ما تسمعى امال .. « أفصك نايب » ..

ورددت نجية كذلك بغيظ وغيرة :

ـــ يا ختى الحقى .. أفصك باين ..

فانتبه أحد الأفندية وقال ضاحكا :

ـــ أفص مين اللى باين ؟؟..

فاستدركت نجية بسرعة صائحة :

ـــ يوه .. يا دهوتى .. شوف يا ختى .. قال بدى اقول أفصك نايب .. قلت أفصك باين ..

ثم ضحكت ضحكة رنانة ... هى التى نبهت الأسطى ، فالتفتت ونظرت إليها شزرًا ثم قالت :

ـــ هلبت انسخطتى لما ترقعى الصهلولة كده فى وسط الباجور ..

فقالت نجية :

ـــ أصلى غلطت وانا بضرب بالسيم .. قطيعه !..

وعادت الأسطى حميده إلى حاجبيها وعود الثقاب ، فقال « لابس البنش » بتوسل :

ـــ يا اسطى حميده.. أنا محسوبك.. التقل على الصايمين حرام..

فأجابت الأسطى بتيه و « دلع » :

ـــ حاضر .. من عينى ..

فقال أحد الأفندية :

ـــ « فى العشق قضيت »

فأجابت الأسطى بدلال :

ـــ حاضر ..

فقال أفندى آخر :

ـــ مش حاضر وبس .. لا .. إحنا محاسبيك ..

فقالت الأسطى :

ـــ من عينى .. حاضر ..

فقال « لابس البنش » مشيرًا إلى العود :

ـــ العود ما هو جنبك .. أهو يا اسطى حميده ..

فأجابت « بتقل » :

ـــ حاضر .. حالا ..

ثم نظرت إلى نجية وقالت بصوت يسمعه الأفندية :

ـــ آه .. ياما روحى بتشفشف على فنجان قهوه ساده ..

فقال « لابس البنش » :

— لك علينا يا اسطى حميده لما نوصل بنها ..

وقال أحد الأفندية منتهزًا الفرصة :

— مش نسمع « فى العشق قضيت » يا أسطى حميد والا إيه ؟.. إحنا نرجوك رجا خصوصى ..

فأجابت الأسطى بدلال « وتقل » بنت « الكار »:

— حاضر .. امسكى الرق يا سُلم ..

ثم نظرت إلى فاطمة وسألتها همسًا « بالسيم » :

— بنت يا فاطنة .. بصى فى وشى .. هلبت ما حاجب خفية وحاجب تقيل ؟..

وفى هذه اللحظة حضر المفتش ؛ ليفحص تذاكر من ركب من قليوب .. فقال لطائفة التخت بلهجته الجافة المتحفظة :

— ما زادش عليكم حد ؟..

فأجابته الأسطى حميده وهى تخط حاجبها الخفيف بعود الثقاب :

— ما زاد علينا إلا الخطوط ..

فانصرف المفتش ؛ خشية أن تنقص هيبته بمزاح هـذه الطائفة ..

وما كاد المفتش يبلغ طرف العربة الآخر .. حتى دوى فى العربة صوت هيئة التخت بأكملها مع الآلات جميعا من « عود ورق ودربكة » :

« فى العشق قضيت زمانى
وهمى اليـــوم يكفـــانى
آه ..انظروا جسمى السقيم »

فوقف المفتش مبهوتا ، ووقف كل القطار على « رجل » ..

باريس — يونيو سنة ١٩٢٧

* * *

من رسائل زهرة العمر

« باريس » — شارع « بلبور » فى نوفمبر ١٩٢٦

عزيزى « أندريه »..

لست أدرى : أمن سوء حظى أو من حسنه ، أنى أعيش الآن فى أوروبا ، وسط هذا الاضطراب الفكرى ، الذى لم يسبق له مثيل ، فهذه الحرب الكبرى قد جاءت فى الفنون والآداب بهذه الثورة ، التى يسمونها « المودرنزم »، فكان لزاما علىّ أن أتأثر بها ، ولكنى — فى الوقت ذاته — شرقى جاء ليرى ثقافة الغرب من أصولها ، فأنا موزع الآن كما ترى بين « الكلاسيك » و « المودرن »، لا أستطيع أن أقول مع الثائرين : فليسقط القديم لأن هذا القديم أيضا جديد علىّ فأنا مع أولئك وهؤلاء .

إنى أخرج مثلا من « متحف اللوفر » . متحمسا لأعمال « تسيان » و « دافنشى » و « فلاسكز » و « وجويا »

و« مملنج » و « فان ديك » ، لأدخل بعد ذلك توا معرض الخريف ، أشاهد أحدث لوحات الفن الحديث ، بألوانها الصارخة « الفاقعة » ، وخطوطها البسيطة العارية .

إن الفكرة المسيطرة على الفن الحديث هي : الفطرة والبساطة ، يطلبون في الفطرة النضارة ، ويذهبون في البساطة إلى حد التركيز .. لقد غالوا في التركيز لدرجة المناداة بفصل عناصر كل فن عن الآخر فصلا تاما : فالتصوير — وهو فن الألوان — يجب أن يستغنى عن الموضوع ، لأن الموضوع من عناصر القصة . والشعر — وهو فن الشعور — يجب أن يستغنى عن العقل الواعي « مذهب الدايزم » ، والموسيقى — وهي فن الأصوات — يجب أن تستغنى عن الشعور . والنحت — وهو فن الأحجام — يجب أن يستغنى عن الأفكار .. الخ .

وهذا قليل جدا مما جاءت به نظريات « المودرنزم » . ولا أحب الإسهاب فيها ، لأني أكره النظريات في الفن ، فالفن عندي خلق إنساني جميل لا أكثر ولا أقل ، وقد يكون في « المودنزم » نفسه — على الرغم من نظرياته — بعض جمال ،

ولكن ذلك لن يدعونى مطلقا إلى النداء بسقوط « رفاييل » و « لافونتين » و « بيتهوفن » ، من أجل ثورة تنادى بها طائفة تحاول — بأى ثمن — الإتيان بجديد .. لقد قرأت أخيرًا لكاتبة فرنسية « مودرن » ، تقول عن حركة « المودرنزم » ما معناه : إنه بعد عشرين قرنا من حضارة مفعمة بألوان البراعة الذهنية ، والحذلقة الفكرية ، وحياة الصالونات ، والأكاديميات ، غدت الدنيا مثل غانية عجوز ، مفرطة فى الزينة والبهرج والأصباغ ، بمقدار بعث فى الناس عطشا إلى عصور الفطرة الأولى ، بناسها العراة وإحساسها المجرد . وإن قيمة الفن الحديث ، هى فى أنه يحاول أن يعيدنا إلى النضارة الفطرية البدائية ، وإلى مصادر الإلهام الأولى . فقول هذه الكاتبة صحيح ، لأن مصادر الفن الحديث : سواء فى الروح أو فى الأسلوب ، مستمدة حقا من الفنون الأولى مباشرة .

إن أثر مصر القديمة ظاهر فى العمارات الحديثة والنحت الحديث ، بل إن الإمعان فى طلب الفن الفطرى وصل إلى حد استلهام فن الزنوج .. إن أثر الفن الزنجى واضح فى التصوير

الحديث والموسيقى الحديثة ، والرقص الحديث ..

سأحدثك فى رسالة أخرى ـــ عما سمعت أخيرًا من موسيقى .. إنى لا أترك الآن أسبوعا واحدًا دون أن أذهب إلى قاعة « كونسير » « بلييل » أو إلى « كونسير » « كولون » أو « بادلو » ، بل إنى أحضر حفلتين أحيانا فى يوم واحد . ولقد حضرت الأسبوع الماضى ثلاث حفلات موسيقية فى يومى السبت والأحد ، فقد أدوا فى الأولى : « ذهب الرين » لـ « فاجنر » ، وفى الثانية : « السانفونى فانتاستيك » لـ « برليوز » وفى الثالثة « السانفونى » السابعة لـ « بيتهوفن » .. سوف أحدثك أيضا عن الموسيقى الأسبانية ، وقد حضرت فيها حفلتين : إحداهما للموسيقى « هافنلر ». كما أنى محدثك عن الموسيقى الروسية ، بعد أن سمعت للمرة الثانية « سادكو » لـ « رمسكى كرسا كوف ». وعلى ذكر « فاجنر » وصداقته المعروفة لفيلسوف « نيتشه » كدت ألمس بنفسى أثر تلك الصلة الفكرية بينهما ، وأنا أصغى إلى نغمة « سيجفريد » المتكررة ، تلك التى يسمونها الـ « Leitmotiv » .

إن استخدم « فاجنر » لنغمة واحدة بالذات ، يطلقها رمزًا لكل بطل من أبطال « أوبراته » ، ويجعلها تعود كلما عاد البطل إلى الظهور : لتذكرنى بكلمة « نيتشه » : « هناك حادثة متكررة تعود من آن إلى آن فى حياة كل إنسان » ..

* * *

« باريس » — شارع « بلبور » فى ديسمبر ١٩٢٦

عزيزى « أندريه »..

أرسل إليك ما كتبته من الرواية منذ شهور ، وهو كما ترى فصل وشىء من فصل ، اقرأهما وأخبرنى برأيك ، وثق كما أخبرتك أنه ليس فى عزمى مطلقا أن أتم هذا العمل رواية كاملة ، للأسباب التى ذكرتها لك ، وأزيد عليها سببًا آخر : أنى لا أدرى بأى أسلوب بدئت ، وبأى أسلوب تختم ..

فأسلوبى الآن خاضع لتطورات سريعة مستمرة . ولقد سبق لك أن اطلعت على قطعة « الحلم » ، التى أرسلتها إليك ، وهى تختلف ، فى أسلوبها عما ستقرأ من هذه الرواية ، على أن الذى أرجوه منك هو أن تعيد إلىّ المخطوطة ، بعد قراءتها ، لأنى لا أملك

نسخة أخرى ..

« باريس » فى ٢٤ مايو ١٩٢٨

« أندريه ».

بعد بضع ساعات أكون قد فارقت « باريس » المحبوبة .. أسافر هذا المساء بقطار الساعة التساعة ، وغدًا ٢٥ مايو تكون الباخرة « راولبند » قد أقلعت حاملة جثمانى ؛ وإن سئلت عن الروح ، قل روحه فى قاعة كونسير « بلييل » ..

« أندريه » لست أملك الآن من أمرى شيئا ، إلا الابتسام فى وجه القدر الظافر ، ولعل هدوئى راجع إلى توقعى هذه الكارثة التى تعرف أنى طالما ترقبت ساعتها بذعر وفزع .. لقد وقع الأمر المحتوم ، فما تريد أو أريد ؟.. أملى الباقى معلق عليك .. رسائلك يا «أندريه » على الأقل .. رسائلك تحمل إلىّ فى صحرائى نسيم أوروبا العظيمة !..

أودعك يا « أندريه » وداعا حارًا ، وأودع « جسرمين » و « جانو » وقد رأيتهما أمس للمرة الأخيرة . أودعكم وأودع فيكم « باريس » الفن والفكر !..

حاشية — كنت أريد أن أحدثك عن موسيقى اليوم « ميلهو — روسل — هونجر — سترافنسكى » بمناسبة حفلات هامة قامت بها فرق أجنبية فى باريس فى الشهرين الأخيرين : فرق ألمانية بقيادة « مانجلبرج ».. وأخرى نمساوية بقيادة « برونوفالتر » !.. إن طرق هذه الموضوعات الآن لمما يزيدنى ألما ، على أنى أحب أن أقول لك إن سخطى على « سترافنسكى » ، يوم نشر نقده المقذع « لفاجنر » و « بيتهوفن » ، قد زال بعضه عند سماعى قطعته « تقديس الربيع » مرة أخرى !.. إنه على كل حال تعبير قوى لاتجاه جديد فى الموسيقى وأغراضها ، كما يفهمها هذا الروسى الثائر .

نسيت أن أخبرك فى رسالتى السابقة أنى شاهدت رواية « هاملت » فى الشهر الماضى يمثلها خير ممثل فى إيطاليا ، حذق هذا الدور وهو « روجيرو روجيرى » ، وكنت قد شاهدتها قبل ذلك من تمثيل « موييسى »، وهو خير من قام بهذا الدور عينه فى ألمانيا .. إن مجال المقارنة بين الفنين لما يحتاج إلى رسالة طويلة ، ويكفى أن أقول لك إنه لا يوجد مكان فى العالم — ترى فيه الفنون

كلها مجتمعة ـــ سوى « باريس » !.. « باريس » هى « فترينة العالم » .. نعم هى الواجهة البلورية التى تعرض خلفها عبقرية الدنيا .. أكرر وداعى لك ولباريس ، وأحذرك يا « أندريه » من أن تحرمنى ، وأنا بمصر ، هذا الاتصال بألوان الفن !..

* * *

« الإسكندرية » فى ١٢ يونيو ١٩٢٨

عزيزى « أندريه » !..

أحفظ لك فى نفسى جميلا يضاف إلى سوابقه : رسالتك الطويلة التى بادرت بإطلاقها فى أثرى ، فأدركتنى ولما أتم الأسبوع فى بلادى !.. إذا أردت أن تعرف مقدار اغتباطى بهذه الرسالة فاذكر أنى ضمختها بعطر فرنسا المأسوف عليها !..

أود لو أكتب إليك بأخبارى ومشاعرى، ولكنى أراهسا لا تساوى شيئًا كلها، أهى شىء غير إطراق طويل وابتسامة حزينة، كلها رأفة ورثاء لكل ما يقع ها هنا، ويأس قاتل، وتحرق دائم، وأيام تجرى كالدموع الباردة، وحياة أتمنى ردها لخالقها إن لم يعطنى حق استعمالها كما أريد!.. هل ترانى مستطيعًا أن أكون

شيئًا غير ذلك الآن ؟!..

أختتم خطابى سريعًا خشية أن يفوت موعد البريد المسافر إلى أوروبا هذا الأسبوع ، وإنى أترقب رسالة منك ؛ فأنت الذى يقدر على إمتاعى بالطريف القيم ، أما أنا فما عندى شيء مفيد أقوله لك !..

* * *

« الإسكندرية » فى أول يوليو ١٩٢٨

عزيزى « أندريه » !..

هأنذا أسرع فى الرد على رسالتك راجيًا أن تصلك خلال شهر الراحة ؛ كما تقول !.. وكلى أمل أن يجيئنى منك رسالة عاجلة شافية ، تربو صفحاتها على العشر !.. فإن أول ما يعنينى معرفته حين استلام رسائلك هو وزنها وحجمها ، وغير حافل بما تحويه من كلام ، فأنا فى حاجة كما ترى إلى مجرد ثرثرتك .. أما أنت فما أظن بك حاجة إلى أخبارى ؛لأنها راكدة كالماء الراكد ، ولو بدا تغير قليل فى مجراها لبادرت بإخطارك .. كل ما عندى هو أنى أعيش فى جو فكرى ـــ إن كان فى مصر ما يجوز أن يسمى بالجو

الفكرى — لا يستطيع أن يعيش فيه مثلى ، وأصدقاء الماضى أصبحوا لا يصلحون اليوم لى ، فحديثهم ونكاتهم وطريقة قتلهم للوقت لما يزهدنى فى الجلوس إليهم ، وإن شئت وصفًا دقيقًا لحالى فهو يتلخص فى كلمة واحدة : الوحدة !.. الوحدة فى أكمل وأقسى معانيها ، أمضى اليوم فى القراءة ، فإذا جاء الغروب خرجت إلى « كازينو سان استفانو » ؛ لأسمع القليل من الموسيقى التى يعزفونها هناك ، وحتى فى هذا المكان الصاخب باللاهين أحرص على وحدتى ، فأنزوى خلف عمود قرب « الأوركستر » ، متحاشيًا نظرات من أعرف ؛ حتى لا أكلف نفسى عبء التحية ، وهل تتصور أن يكون حالى غير ذلك ؟..

لا أكتمك يا «أندريه»!.. إن صرخة خرجت من أعماق قلبى، عندما قرأت فى رسالتك خبر حريق قاعة كونسير «بلييل»!.. إن ألمى لهذا الخبر سيتضاعف كلما ذكرت أن هذا الهيكل العظيم هو عندى رمز من رموز الفن فى «باريس»!.. اكتب إلىّ كتابا مطولا، إذا كنت تعتقد أن أسمى واجباتك نحوى هو التفضل على ساكن الصحراء ببعض نفحات أوروبا العاطرة!..

الإسكندرية فى يناير ١٩٢٩

عزيزى « أندريه »..

تسألنى من هى « ساشا شوارتز » ؟.. عجبًا !.. ألا تذكرها ؟.. أوَ لم أقص عليك قصتها من قبل .. أهان أمرها علىّ بهذا القدر الذى لم يتم ، ولا يمكن أن يتم ؟!..

حدث ذلك يا سيدى فى مساء يوم جميل جلست فيه مع « مسيو هاب » إلى مائدة مشرب صغير Bistrot فى « مونمارتر ». وكنا نتحدث فى أمر حوار صغير كنت قد كتبته ، ودفعت به إليه ليرى رأيه فيه ، فرآه خفيف الروح قوى التركيب سلسًا سائغًا ، يستلب لب القارئ استلابًا .. وقال لى : « إنى أراك قد اعتصرت « موليير » و « بومارشيه » و « ماريفو » اعتصارًا !.. » ففرحت بقوله هذا كثيرًا ، وطلبت كأسًا أخرى من « البرنو » .. وما كدت أتناول منها جرعة حتى دخلت المشرب غادة ذات جسم ، ذكرنى بتمثال « أفروديت » . وكان فى صحبتها شاب برنزى اللون جميل الطلعة كأنه « أبوللون » .. ولست أدرى أسكرت من « البرنو »، أم من إطراء صاحبى ،

أم من روعة هذه الغادة ؟. كل ما أذكر أنى تمايلت على « مسيو هاب » صائحًا : « ناد الجرسون واطلب سكينًا !.. » فقال دهشًا : « سكينا ؟!.. تصنع ماذا !.. » فقلت : « أقتل نفسى عند أقدام هذه المرأة ، حبًا وجنونًا وغراما !.. » فالتفت « هاب » إلى المرأة ثم إلى صاحبها وقال لى : صدقت ، ولكنها كما ترى ذات رفيق وأى رفيق .. لا أمل لك أيها الصديق .. إذا أصررت على السكين فإنى أنادى لك الجرسون !.. » ولبثنا ساعة ننظر إليها ونتحسر ..! ثم نهضنا وانصرفنا كل إلى شأنه ، ومضت أيام قلائل وإذا مسيو « هاب » فى أثرى يبحث عنى فى مظانى ، حتى عثر بى فبادرنى صائحًا : أين أنت ؟.. أين أنت أيها الرجل السعيد !.. افرح بسرعة فأن عندى لك خبرًا سارًا .. إنها لك منذ اليوم خالصة مخلصة !.. فلم أفهم مراده بادئ الأمر ، وقلت له : عمن تتكلم ؟.. فقال : عنها هى .. عن تلك المرأة . فقلت : أى امرأة ؟.. فضاق صدره بى : عجبًا لك !.. أى امرأة ؟.. المرأة التى رأيتها فى المشرب منذ أيام !.. فتذكرت كل شىء : حقًا !.. حقًا .. أخبرنى ما خبرها !.. فقال : ياللحظ عندما

يواتى الإنسان !.. لقد كنت بهذا المشرب البارحة ، وإذا بى ألمح امرأة جالسة إلى مائدة بجوارى أمامها « بوك » من البيرة لم تمسه شفتاها ، وقد أخفت وجهها فى منديلها ، وطفقت تبكى بكاء مراً ... فعجبت لأمرها ، ولبثت أرقبها حتى تبينت آخر الأمر أنها صاحبتنا « أفروديت » فتحينت منها الفرصة وحادثتها ، ولم أزل بها حتى اطمأنت إلىّ ، وكشفت لى عن بلائها : صاحبها البرنزى اللون وهو أسبانى يدعى « جاريسا » ؛ قد هرب إلى بلاده ، وهجرها بلا مأوى ولا نقود ولا معين .. وهى أجنبية هى الأخرى — ألمانية أو روسية لست أدرى على التحقيق — اسمها « ساشا شوارتز » وهى تجيد الفرنسية ، وقد كانت تعمل « سكرتيرة » فى إحدى وكالات السفر ، فالتقت بهذا الشاب الأسبانى ، فاستلب لبها وأخرجها من عملها ، وختم قصته معها على هذا النحو . وليس من اليسير أن تجد سريعًا عملا يقيها شر الجوع ، فهى لا ترى فى رأسها غير أفق حالك ، تبدو منه فكرة الانتحار ؛ كأنها شمس سوداء !.. فبادرتها صائحًا مرتاعًا : تموتين ؟.. أنت ؟.. مهلا يا سيدتى مهلا ؟.. تموتين وعندى

شخص يموت فيك حبًا وهيامًا وغرمًا .. » فنظرت إلىّ بعينين كلهما دهش واستفهام ، فأخبرتها بخبرك وضربت لها موعدًا مساء اليوم بذلك المشرب لأقدمك إليها .. كل أمل هذه المرأة الآن هو أن تجد لها مأوى ومعينًا ، ولا شك عندى فى أنك مستطيع أن تحقق لها هذا الأمل .. » تصور ذهولى يا « أندريه » وأنا أسمع من مسيو « هاب » كل هذا .. لقد حسبته يمزح ، ولكن الموعد حانت ساعته ، فلم أر فائدة فى اللجاج ، فجلست أنتظر .. وإذا بى بالفعل ، أبصر لدهشتى « أفروديت » تدخل علينا فى حال كسيرة ، وقد أفسدت الدموع أهدابها ، وأنساها الحزن الالتفات إلى هندامها ، فنهض « هاب » لاستقبالها ؛ ونهضت أنا أيضًا كالخجل المأخوذ ، وحيَّاها صاحبى ألطف تحية ، وقال لها باسما وهو يقدمنى إليها : « كنت تريدين الانتحار يا آنستى ، فها هو ذا شىء أهون قليلا من الانتحار .. » فنظرت إلىّ الفتاة بابتسامة وديعة ، فيها أثر الحزن وفيها أيضًا الاستسلام ؛ وكأن كل شىء فيها ينطق : « ليس الآن أوان الفحص والفرز والاختيار » . وتركنا « هاب »، وقد رأى أن مهمته قد انتهت ، فلبثنا وحدنا لحظة

صامتين ، لا أدرى ماذا أقول .. إلى أن سألتها آخر الأمر عن أمتعتها ، فقالت لى إنها مودعة عند صديقة لها متزوجة ، أضافتها الليالى السابقة ، ولم يعد من اللائق أن تفرض ضيافتها على أسرة أكثر من ذلك .. وكانت تلك الأسرة تقطن ضواحى « باريس » والوقت ليل ، فرأينا أن نرجىء طلب الأمتعة إلى الصباح ، وذهبت بالغادة الحزينة إلى أحد المطاعم فتعشينا ، وأنا أحاول إضحاكها والتسرية عنها ، ثم قدتها إلى مسرح تعرض فيه رواية « فودفيل » مفرحة ، فانتعشت قليلا ، وضحكت مع الضاحكين ، وخرجنا وقد أنست إلىّ بعض الشيء ، وبدأت تتوطد بيننا الألفة .. وذهبت بها إلى حجرتى بشارع « بلبور » فسرت كثيرًا بالمطبخ الصغير الملحق بالحجرة ، وما فيه من أدوات لشىّ اللحم وجهاز لموقد يشعل بالغاز ، وسألتنى أن أعيرها تلك الليلة « بيجاما » مما أرتديه للنوم . ففعلت ، وتشاغلت بالنظر فى كتبى المكدسة فوق المكتب ، ولك أن تصدق أيها الخبيث « أندريه » أو لاتصدق ، فو الله لم أحاول اختلاس النظر إليها وهى تخلع ثيابها ، ولا أذكر أين فعلت ذلك .. هل خلف خزانة

الثياب أو فى المطبخ ، وكل ما أذكر أنها طلعت علىّ فجأة وهى مرتدية « البيجاما » ويكاد نهداها البارزان يفتقان الرداء ، فوقع الكتاب من يدى ، فابتسمت .. ابتسمت « أفروديت » ، وكانت ليلة لا تنسى .. وبزغ الصبح ، وفتحت عينى وقد راحت السكرة ، وجاءت الفكرة .. ونظرت إلى تلك المرأة النائمة فى فراشى وقلت لنفسى : ماذا أنا صانع بها .. اليوم الأحد ، وهو يوم زيارتى المعتادة لمتحف اللوفر .. هل أصحبها ؟.. إنها لن تطيق المكث فى هذا المتحف ست أو سبع ساعات ، كما أفعل ، وإذا احتملت فإنها لن تستطيع الوقوف ساعة أمام الصورة الواحده ؛ كما أصنع ، وإذا فعلت فإنها لن تسكت عن بعض التعليقات السخيفة التى تبدد جو تأملاتى ، وتفسد علىّ نظام تفكيرى .. ثم إنها ستغير برنامج حياتى !.. إنى الآن آكل وأعمل وقتما أريد وحيثما أريد ، إن حياتى غير المقيدة بمكان ولا بزمان ولا بإنسان ستصبح منذ اليوم داخل إطار محدود من صنع هذه المرأة . إنها عبء وتبعة ، إنى لم أخلق لأسير فى الحياة وامرأة معلقة بذراعى !.. » ونهضت من فراشى على عجل ،

ارتديت ثيابى ؛ وكتبت كلمة تركتها لها فوق المكتب خلاصتها : « إنى رجل بوهيمى ، لا يصلح لرعايتك ، والسهر على راحتك ؛ فأرجو أن تخلينى من تبعة إسعادك !.. فإنى لست لهذه النعمة بأهل .. » وألقيت عليها نظرة أخيرة وهى فى نومها العميق المطمئن وانصرفت . ذهبت توًا إلى مسيو هاب ، وأخبرته بما حدث فكاد يصعق ، فهدأت من روعه وضاحكته قائلا : « لا تنس أنى رجل شرقى متوحش !.. المرأة عندى يجب أن تظل فى الحريم أو على الأقل لا يكون لها دخل كبير فى حياتى . إذا أرادت « ساشا » أن تتخذ من مسكنى مأوى لها ، فلا مانع لدى .. على شرط أن تتركنى حرًا .. فلا تخرج معى .. ولا تشعرنى بأن لها فى حياتى وجودًا !..

ففهم « هاب » مرادى ، وقال : لا بأس !.. أظنها ترضى بهذا الشرط .. ولكن نفقات طعامها ؟.. فقلت له : « فى مقدورى أن أعطيها كل يوم ثمانية فرنكات أو تسعة[١] » فقال « هاب » : « لغذائها وعشائها معًا !.. » قلت « نعم »،فقال :

---

(١) أى ما يعادل وقتئذ ثمانية قروش مصرية .

« اجعلها عشرة فرنكات »!... فقبلت ، وتعهد هو بأن يلقاها فى ذلك اليوم ؛ ليعرض عليها هذا الوضع الجديد ، وانصرفت أنا إلى « متحف اللوفر » ، فغرقت طول يومى فى قاعة الفن الإغريقى متنقلا بين تماثيل « بالاس » و « أبولون » و « فينوس » فى أوضاعها المختلفة ، آه يا « أندريه » .. إن فن الإغريق هو تجميل الطبيعة إلى حد إشعارها بنقصها .. لكأنهم يريدون أن يقولوا للطبيعة : انظرى كان ينبغى أن تصنعى هكذا !..

ومضى أكثر النهار ، فدلفت إلى قاعة الفن المصرى القديم .. ولا يفصل بينها وبين قاعة الإغريق — كما تعلم — غير باب صغير ؛ وما كدت أتخطى العتبة حتى شعرت بفرق عجيب .. إنه عالم آخر. إن فن مصر القديمة هو تحدٍ صارخ للطبيعة ؛ لكأنهم يقولون للطبيعة : « انظرى .. لا شأن لنا بك .. ولا بمخلوقاتك .. إننا نستطيع من مخيلتنا ومن تفكيرنا أن نخرج مخلوقات أخرى غريبة عجيبة لم تخطر لك على بال .. على أن الذى استلفت نظرى فى هذا الفن ، هو أن أسلوبه قد أوحى إلىّ أسلوب الفن الحديث فى العصر الحاضر إلى حدٍ كبير .. وخرجت من

« اللوفر » وأنا أقلب فى رأسي الملاحظات والمقارنات .. وذهبت إلى مطعم صغير أتناول عشائى .. ثم عدت إلى مسكنى فوجدت المسكينة « ساشا » قد غادرته تاركة لى هذه الكلمة فوق المكتب :

« سيدى !.. إنك لا تريدنى ، ولكننى أبحث عبثًا ، وأستعرض فى ذاكرتى كل ما حدث أمس ، والمساء والليل ؛ علّنى أجد اللحظة التى أكون فيها قد خيبت ظنك فيها ، وليس فى مقدورى سؤالك أو الاستفسار منك ؛ فلقد ذهبت تاركا لى تلك الكلمة التى تدعونى فيها — على نحو ظاهر — إلى الرحيل !.. إذن .. فلم يبق لى إلا أن أسير فى طريقى .. أود على كل حال لو حدثتك مرة أخرى !.. فإذا لم تر بأسًا فى ذلك فإنى أرجو منك أن تبعث إلىّ كلمة بعنوان صديقتى المسطور فى أعلى خطابى .. »

فى الحق يا « أندريه » أنى تألمت وندمت ؛ لقد كان تصرفى خاليًا من الرفق والرحمة ، ولبثت أفكر وأنا أجيل النظر فى حجرتى الخالية .. إن وجود هذه المرأة ها هنا ليس عبثًا بالقدر الذى تصورته .. إنها كانت تملأ المكان على كل حال بعطرها النسائى ، فتغير قليلا من هذا الجو المغبر بتراب الكتب .. ما أجملها عندما

كانت مرتدية ثوب النوم الذى أعرتها إياه البارحة !!.. لسيتها تعود . ما أوحش الليل بدون امرأة !.. وقضيت ليلة مضطربة ، وفى اليوم التالى ذهبت إليها فى مسكن صديقتها .. وحملتها هى وأمتعتها فى سيارة ، وعدت بها إلى حجرتى بشارع « بلبور » . وأخبرتنى فى الطريق أنها التقت بمسيو « هاب » فى اليوم السابق وأنه أخبرها بالشرط والنظام الجديد ، فعاهدته على القيام بتنفيذه على أدق وجه !... وهكذا استقر بنا الحال أيامًا . وكان لحجرتى مفتاحان استبقيت واحدًا وأعطيتها الآخر ؛ فإذا كان الصباح تركت لها فوق مكتبى الفرنكات العشرة ، ثم انطلقت حرًا طول يومى ، فلا أرى لها وجهًا إلا ليلا .. هنالك أحيانا يحلو لى أن ألزم حجرتى ، لأكتب الساعات الطوال .. فما كانت تنبس بحرف ، بل كانت تقرأ ، تقرأ كل ما يقع تحت يدها من كتبى المكدسة .. لقد عجبت أول الأمر لكثرة مطالعاتها ولإجادتها لغات .. إلى أن قصت علىّ نشأتها .. وعلمت أنها ابنة مدير إحدى شركات السكك الحديدية فى ألمانيا .. فلما انهارت الشركة بعد الحرب بانهيار « المارك » والنظام الاقتصادى الألمانى ؛ — انهارت أسرتها

أيضًا : فمات أبوها ، وتشرد إخوتها وأخواتها فى أرجاء أوروبا !..

نزحت هى إلى « فرنسا » حيث وجدت ذلك العمل الذى شغلته فى وكالة السفر ، حتى فقدته هو الآخر جريا وراء قلبها !.. إنها بوهيمية من الطراز الأول !.. على أنها لم تفهمنى أيضًا كما كان ينبغى ، فإنه لم يمض على نظامنا هذا عشرة أيام ، حتى نسيت مراميه ، وأغراضه وإذا هى تترك لى فوق مكتبى هذه الكلمة :

« عزيزى !.. إنك تتغيب طويلا .. لكأنك تتعمد الهرب من حجرتك ، ومن وجودى ، على الرغم من الجهد الذى أبذله حتى لا أضايقك أو أثقل عليك !.. وحدتك هذه تكاد تشعرنى بأنها مظهر استياء منى .. وإنى لأبحث عبثًا عن السبب يا صديقى العزيز .. إنى لأرجوك من كل قلبى أن تخبرنى عما لا يعجبك منى !.. قلها بصراحة .. فربما كان فى الإمكان رتق رباط الثقة والاطمئنان الذى يصل أحدنا بالآخر .. هذه الثقة ، والاطمئنان الذى تخلو منه نفسى فى هذه اللحظة ؛ — ربما كنت مخطئة فى هذه التقديرات !.. ربما كنت مسرفة فى الوهم ، فأخذت شغلك

بعملك على أنه شغل عنى !.. مهما يكن من أمر فطمئنــى بكلمة ؟.. إنى حزينة جدًا .. إنى خارجة أستنشق بعض الهواء ، وأرفه عن نفسى قليلا .. ولكنى أرجو أن تكون على ثقة من أن إخلاصى هو لك وباق لديك .. »

الواقع يا « أندريه » أنى عجبت لهذا الخطـاب !.. إن الإخلاص أو الحب ، أو أى عاطفة من هذا النوع لم تكن داخلة ضمن الشرط بأى حال !.. وإنى لأعلم أن « ساشا » لم تحبنى على الإطلاق !.. حقيقة هى لم تذكر لي شيئًا عن صاحبها الأسبانى منذ مجيئها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها نسيته !.. لقد كانت تقرأ ذات ليلة فى الفراش كعادتها قبل النوم ، وكنت أنا أكتب على مكتبى أو أطالع ؛ وإذا بى أسمع صوت عبرات مكتومة ، فرفعت عينى فوجدتها تحاول إخفاء بكائها ، فسألتها عما بها ، فكانت صريحة وقالت : إن يدها وقعت تلك الليلة على « دون كيشوت » وأقاصيص نموذجية من أعمـال « سرفانتــز » فغمرهـــا فى ذكريات .. ثم قالت وهى تمسح دموعها بيدها :

« لم أكن أعلم أنى أجد هنا كتبًا أسبانيـة »، فقـلت لها :

« عجبًا ، أوَ كنت تريدين أن أتجاهل الأدب الأسبانى ، وأستبعد مؤلفـات « سرفانتـس » ، ومسرحيـات « كالـدروز » ، وكوميديات « لوب دى فيجا » ؛ لأن للكِ خليلا أسبانيًا ؟ .. »
أجل يا « أندريه » .. لم يكن بيننا حب قط .. ولا أذكر أننا تبادلنا كلمة واحدة فيها حرارة العاطفة الملتهبة !.. هذا شىء لا يمكن أن يحدث مع امرأة موجودة .. موجودة أمامى فى كل وقت !.. إن اللحظة الوحيدة التى أحببتها فيها حقًا هى ساعة دخولها المشرب أول مرة مع صاحبها الأسبانى !.. إنها كانت رائعة ؛ لأنها كانت شيئًا فى السماء ، مثل كوكب يتلألأ ، لا يمكن أن تمتد إليه يدى ، ولكن هذا الكوكب ما لبث أن وقع فى كفى ، فإذا هو مصباح ضئيل ، يحتاج إلى يدى القاصرة لتملأه بالزيت ، وتحميه مـن التحطم والسقـوط !.. إنى لم أزل أحب « إيما » لأنها شىء بعيد .. غير موجود فى كل وقت ، يصل إلىّ غناؤها من نافذتها ؛ كأنه شعاع يأتينىَ من بعيد !.. إنها أعطتنى بعض أسرار نفسها وجسمها .. ولكنها مع ذلك ليست فى يدى ؛ شأنها شأن الطبيعة التى تعطينا وتستعصى علينا .. إن الحب قصة لا يجب أن تنتهى ..

قصة « إيما » مستمرة لا تريد أن تنتهى .. إن الحب مسألة رياضية لم تحل .. إن جوهر الحب مثل جوهر الوجود ، لا بد أن يكون فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » أو « المطلق ». إن حمى « الحب » عندى هى نوع من حمى « المعرفة » واستكشاف المجهول والجرى وراء المطلق .. ماذا يكون حال الوجود لو أن الله قـذف فى وجوهنا — نحن الآدميين — بتلك المعرفة أو ذلك المطلق يومئذ ؛ إنها ولا شك لو بقيت بعد ذلك لصارت شيئًا خاليًا من كل جمال وفكر وعاطفة ؛ فكل ما نسميه جمالا وفكرًا وشعورًا ، ليس إلا قبسات النور التى تخرج أثناء جهادنا وكدنا وجرينا خلف المطلـق والمجهول !..

لو أن « إيما » قبلت أن تترك حجرتها كما عرضت عليها وتأتى لتقطن معى فى حجرتى لكان حظها حظ « ساشا » ، هنا الفرق بين « الغرام » و « الزوجية » !..

إنى أدرك الآن لماذا يفتر الحب الملتهب بين الخليلين إذا تزوجا ، وقد يعود إلى سابق اشتعاله إذا عادا خليلين ، لكل منهما حياته المنفصلة .. إن الانفصال هو الذى يغرى بالاتصال .. لهذا كله

كانت حياة « ساشا » معي أقرب إلى الحياة الزوجية الخالية من أى عاطفة قوية ، فما معنى خطابها هذا الذى كتبته اليوم ؟.. أتراها أنوثة المرأة ، تنسى كل شرط وكل اتفاق ، ولا تذكر إلا الرغبة فى أن تشغل قلب الرجل ؟.. وماذا أنا قائل لها ما دمت أوقن بأنها لا تحبنى !؟..

وطويت رسالتها وطرحتها جانبًا ، ومضيت فى عملى ومطالعاتى .. إلى أن عادت ومعها نسخة من صحيفة يومية ، وأخبرتنى مبتهجة بأنها وجدت لنفسها عملا ، فلقد قرأت إعلانًا فى الجريدة لأحد المسارح الراقصة ، يطلب فتيات لهن أجسام جميلة تصلح لرقص المجموعة .. فتقدمت فى الحال ، وكان نصيبها الفوز ، فما من شك أن جسمها يعد خير نموذج لجسم المرأة الجميل !.. على أن المسرح لن يعطيها بادئ الأمر أكثر من خمسمائة من الفرنكات فى الشهر ، وقالت لى وهى تخلع قبعتها ، وتنثر فى الهواء شعرها الأشقر :

« لا أعرف كيف أشكرك على معونتك لى ، ولكنى أرجو منذ الغد أن تكف عن منحى الفرنكات العشرة ، على أنى لم أزل بعد

فى حاجة إلى مشاركتك حجرتك ، لأن ربحى — كما ترى — لا يسمح لى حتى الآن باقتناء مسكن خاص !.. »

فقلت لها :

« يا عزيزتى !.. الآن فهمت سر خطابك !.. أحسبت أنى أهرب منك استياء وتبرمًا وضيقًا بعبء العشرة الفرنكات ؟!.. فخرجت تبحثين عن عمل ؟.. على كل حال ، أنت حرة فى شئون حياتك ، وإنى دائمًا عند تعهدى بأن أكون فى معونتك وخدمتك على الوجه الذى تريدين !.. »

واستمرت حياتنا المشتركة تجرى فى مجرى هادئ ، فكلانا له شغل منفصل عن الآخر ، وحياة مخالفة لحياة الآخر .. لا يجمعنا إلا الليل فى فراش واحد ، ولم يخطر على بالى حتى مجرد التفكير فى نوع عملينا أو المقارنة بين حياتى وحياتها ، منذ ذلك اليوم .. فأنا طالب قانون وفلسفة وعلم وفن وأدب ، وهى راقصة فى مسرح راقص ، من طراز « الفولى برجير » أو « المولان روج ».. لست أذكر اسمه ، ولعلى لم اسألها عنه ، ولا بد أنها أخبرتنى باسمه وبخبره ، فلم أحفل بذلك ، ولم أع ما قالت ، ولم أنصرف بذهنى

عما كنت أقرؤه وقتئذ أو أفكر فيه .. ولم أشعر أنا بتغيير فى نظامنا ، سوى انقطاعى عن منحها أى نقود !.. لقد حدث تغيير فى نظام حياتها هى ؛ تعود إلى الحجرة كل ليلة بعد التمثيل فى آخر قطار من قطارات المترو ، تعود « بالماكياج » مطلية من رأسها إلى قدميها بالأحمر والأبيض !.. فليس فى مسرحها ولا فى بيتنا حمام ، فتدس جسمها المطلى فى الفراش على هذه الصورة .. لقد انزعجت حقا أول الأمر ، يوم نهضت فى الصباح ، فأبصرت جسمى أنا الآخر قد نضح بتلك الألوان .. ولكن انزعاجى لم يقف عند هذا الحد ، إنها تعلمت التدخين بالطبع ، وأنا أكره رائحة الدخان فالويل لى عندما كنت آوى إلى فراشى ذات ليلة مبكرًا .. إنها كانت تعود إلى آخر الليل والسيجارة فى فمها « وتسير فى الحجرة على أطراف قدميها حتى لا توقظنى ، وتطرح معطفها الثقيل عن جسمها العارى — إلا من « مايوه » الرقص — وتذهب إلى المطبخ فتأتى بشطيرة خبز داخلها سردينة ؛ فهى جائعة ، وتجذب من بين كتبى قصة « لفلوبير » أو « بلزاك » أو تمثيلية « لبورتوريس » أو « لينورمان ».. فهى

مقيمة على عادة القراءة قبل النوم .. وتضئ المصباح الكهربائى على رأس السرير ، ثم ترفع عنى الغطاء برفق وحذر .. وتدخل الفراش إلى جانبى ، بسردينها ودخانها وأحمرها وأبيضها ، وتحسب بعد ذلك كله أنها حرصت على عدم إيقاظى وإزعاجى .. لطالما نهضت لأنهرها وأطلب إليها أن تبطل هذا كله وتنام .. فكانت تستعطفنى وتستمهلنى حتى تتم قراءة القصة !..

وكنت أقول : « تتمين قراءة القصة ؟.. الليلة ؟!.. »

والواقع أنها كانت سريعة القراءة إلى حد كان يدهشنى ، إنها تتم قراءة القصة التمثيلية فى ساعة واحدة ، وأنا الذى أقرؤها فى يومين أو ثلاثة ، ولكن هنالك فرقًا هائلا بين قراءتى وقراءتها .. إنها تقرأ للحكاية فى ذاتها .. أما أنا فلا تعنينى حكاية الكاتب ، بل يعنينى فنه ، وسر صناعته ، وطريقة أسلوبه فى البناء ، وخلق الأشخاص ، ونسج الجو ، وإحداث التأثير !.. إنى أعيد أحيانًا قراءة الفصل الواحد ، بل الصفحة الواحدة مرات .. لكم أعدت قراءة « موليير » لا لشىء غير دراسة طريقته فى تقديم الأشخاص ورسم أخلاقهم !.. تلك الطريقة التى تختلف أحيانًا ، وتتغير فى

كل رواية من رواياته .. لذلك لم تكن قراءة « ساشا » تصلح أساسًا حتى للمناقشة ومبادلة الرأى .. وما كنت أجنى منها إلا ذلك المصباح المسلط على رأسى ، والدخان يضيق به صدرى فى ذلك الهزيل الأخير من الليل .. إنها كانت أحيانًا تخشى غضبى فتقفز فى مطالعتها فصلا أو فصلين وتصل إلى خاتمة الكتـاب سريعًا ، ثم تطفئ النور ، وتجذب الغطاء فوقها جذبة تتركنى أنا فى العراء ، فلا أتمالك نفسى ، وأقرصها قرصة تصرخ منها فى جوف الليل !.. ويأتى النهار ، فتستيقظ فى الضحى ، وأبقى أنا فى السرير كسلا .. وتسرع هى إلى ثياب الخروج ، فترتديها لتذهب إلى المسرح فى ميعاد التجارب « البروفات » ..

لبثنا معًا فى هذه الحياة ثلاثة أشهر ، لم يختل نظامها أو قل « فوضاها » قيد شعرة .. حتى تعودت احتمالها ، فندر غضبى أو ضجرى . وبدأت هى تهتم بما أعمل بعض الاهتمام ؛ فكانت تسألنى أن أطلعها على ما أكتب من حوار أو قصص .. فما كنت أقبل ذلك .. لست أدرى لماذا ؟.. أما هى فكانت تسألنى رأيى فى بعض الحركات الجديدة لرقصها ، فكنت أتبرم بـذلك

أيضًا ، فهذا ليس فى عرفى رقصًا فنيًا ، فالرقص الفنى عندى هو « بافلوفا » و « فوللر » و « إيزادورا دونكان » ورقص الجوقات والمجاميع فى « الأوبرات » الرفيعة ، أو فى « الباليه الروسى » ، أو حتى فى الرقصات الدينية التى نراها منقوشة فى الفن المصرى والهندى ، ولكنها كانت تحرك سيقانها ورأسها وذراعيها فى الحجرة ، فلا أجد مفرًا من النظر !.. كنت أقول لها إن رقصها هو فى المجموعة جماله ليس فى ذاته ، بل فى التناسق العددى لكميات الأذرع والسيقان التى تتحرك فى وقت واحد ، وليته مع ذلك كان بالروح الفنى المعروف فى رقصات المعابد الهندية !.. ولقد ألحت علىّ إلحاحا شديدًا فى أن أذهب مرة لمشاهدتها على المسرح .. وأحضرت لى تذاكر مجانية ، فلم أجد من نفسى يومئذ حافزًا على الذهاب .. وليتنى ذهبت ..

وكاد ينتهى الشتاء ، فجاءتنى ذات يوم تقول إن المسرح سيوفد الفرقة الراقصة لتقوم برحلة فى « نيم » و « أورانج » و « أفنيون » فى جنوب فرنسا ، وقد تستغرق الرحلة شهرًا أو شهرين ، وجعلت تتجهز للرحيل ، وهى ترجونى وتزين لى أن

أذهب معهم فى هذه الرحلة ، فضحكت للفكرة :

« أذهب فى رحلة الراقصات بأى صفة ؟.. وعلى أى وضع ؟.. أبصفتي صديق الراقصة ؟.. هذا جميل جدًا !.. ومن يدرى ، ربما عدت من الرحلة ، وقد عينت نهائيًا راقصًا بالفرقة ، أو شيئًا من هذا القبيل !!.. كلا يا عزيزتى « ساشا » !.. إنى لا أستطيع أن أترك باريس واللوفر والكتب والحى اللاتينى ومونمارتر وبلبور . اذهبى أنت وسيرى بمفردك ، فى طريق حياتك ، وإنى أتمنى لك التوفيق !.. »

وودع أحدنا الآخر وداعا حارًا ، وشعرت فى تلك اللحظة بشىء من السعادة ؛ لعودة حريتى الكاملة إلىّ .. ووحدتى المطلقة !..

* * *

قضية الشخصية المصرية

[عندما قمنا فيمَا يسمى « عصر التنوير » عندنا فى العشرينات والثلاثينات ، نناقش قضية « شخصية مصر » والسؤال : « ما مصر ؟ » .. « ما روح مصر ؟ ».. لم يكن ذلك لمجرد كتابة موضوع أو تأليف كتاب ، كما يحدث عادة ، ولكن كان ذلك إجابة عن سؤال وقضية أثيرت فعلا ..

فقد سأل الإنجليز الزعماء المصريين الذين طلبوا منهم استقلال مصر فقالوا لهم : « وما هى مصر ؟ هل هى أمة لها شخصية ؟ أم هى مجرد كيان تابع للدولة العثمانية ؟ وحضارة تابعة للحضارة العربية القديمة ؟..

فقمنا نجيب عن السؤال بالآتى :]

لا ريب أن العقلية المصرية قد تغيرت اليوم بعض التغيير !.. ولكن كيف تغيرت ؟.. هذا هو موضوع الكلام ، إن شئون

الفكر فى « مصر » حتى قبيل ظهور الجيل الموجود كانت مقصورة على المحاكاة والتقليد ، محاكاة التفكير العربى وتقليده !.. كنا فى شبه إغماء ، لا شعور لنا بالذات .. لا نرى أنفسنا ، ولكن نرى العرب الغابرين !.. لا نحس بوجودنا ، ولكن نحس بوجودهم هم !.. لم تكن كلمة « أنا » معروفة للعقل المصرى ، ولم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد !..

وجاء الجيل الجديد فإذا هو أمام روح جديد ، وأمام عمل جديد ، لم يعد الأدب مجرد تقليد أو مجرد استمرار للأدب العربى القديم فى روحه وشكله ، وإنما هو إبداع وخلق لم يعرفهما السلف وبدت الذاتية المصرية واضحة ، لا فى روح الكتابة وحدها ؛ بل فى الأسلوب واللغة أيضًا .. لقد بدأنا نعى ونحس وجودنا !..

وأول مظاهر الوعى شخصية الأسلوب ، واستقلال طريقة التعبير ، وما يتبعها من ألفاظ وأخيلة .. كل هذا أصبح اليوم جليًا معروفًا ، ولم أكتب هذه الصفحات من أجله ، فحاجة مصر إلى الاستقلال الفكرى أمر لا نزاع اليوم فيه ، ولقد مضى الكلام فى هذا ، إنما الأمر الذى يحتاج إلى كلام هو معرفة مميزات الفكر

المصرى : معرفة أنفسنا حتى تتبين لجيلنا مهمته .. لقد فهمنا مميزات الأسلوب والشكل ، وما فهمنا بعد جيدًا مميزات النفس والروح !..

ما هي مميزات العقلية المصرية في الماضي والحاضر والمستقبل ؟.. ما روح مصر ؟.. ما مصر ؟.. إن اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا روحا خاصة ، تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح الأخرى الغالبة ، وأن أول واجب علينا هو استخراج أحد العنصرين من الآخر ، حتى إذا ما تم تمييز الروحين — إحداهما من الأخرى — كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهما ، وكان لنا أن نقول للناس : « ها نحن أولاء قد أنرنا لكم الطريق إلى أنفسكم ، فسيروا » !..

لا بد لنا إذن أن نعرف مَن المصرى ومن الغربى ؟.. هذا السؤال ألقيته على نفسي منذ سنوات معدودة إذ كنت أطيل النظر في الفنين المصرى والإغريقى !.. وأذكر أنى أثرت هذه المسألة أمام بعض الباحثين ، وأذكر أنى لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد في فن النحت سائلا : ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين

مستورة الأجساد ، وعند الإغريق عارية الأجساد ؟.. هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله ، كل شيء فى مصر مستتر خفى عند المصريين ، عار جلى عند الإغريق ! نعم كل شيء فى مصر خفى كالروح ، وكل شيء عند الإغريق جلى كالمنطق !.. فى مصر الروح والنفس ، وفى اليونان المادة والعقل !.. نظرة أخرى فى أسلوب النحت تدعم هذا الكلام .. إن المثال المصرى لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هى شكل ظاهر ، إنما تعنيه الفكرة ، إنه يستنطق الحجر كلامًا وأفكارًا وعقائد !... على أنه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلى !.. يشعر بالقوانين المستترة التى تسيطر على الأشكال !.. يشعر بالهندسة غير المنظورة التى تربط كل شيء بكل شيء !.. يشعر بالكل فى الجزء وبالجزء فى الكل ، وتلك أولى علامات الوعى فى الخلق والبناء !..

هذا كله يحسه الفنان المصرى ؛ لأن له بصيرة غريزية أو مدربة تنفذ إلى ما وراء الأشكال الظاهرة ؛ لتحيط بقوانينها المستترة !.. فنان عجيب لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن !... إنه يريد أن يصور روح الأشكال لا أجسامها ،

وما روح الشكل إلا القانون العام الأعلى المستتر خلفه .. إن ولع المصريين بالقوانين الخفية لشيء يبلغ حد المرض ، مرض إلهى ، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها : فرط البحث عن القانون !..

كل شيء فى مصر إلهى ؛ لأن « مصر » التى منحتها الطبيعة الخير واليسر وسهولة العيش ، وكفتها مشقة الجهاد فى سبيل المادة استلقت منذ الأزل تتأمل ما وراء المادة .. حظها فى هذا حظ « الهند » : أمة كثيرة الخير دانية القطوف ، لا حاجة بها إلى الكفاح ، ولا عمل لها إلا استمراء ترف الحكمة العليا .. انقطعت هى أيضًا من قديم تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة .

مصر والهند حضارتان قامتا على الروح ؛ لأنهما قد شبعتا من المادة ، والإغريق على النقيض : أمة لم تشبع من المادة .. أمة نشأت فى العسر والفاقة .. أرضها لا تدر من الخير إلا قليلا .. كان لزامًا عليها الكفاح فى سبيل العيش ، وكان حتما عليها الجرى وراء المادة .. حرب تلو حرب ، وفتح بعد فتح ، وضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ، على هذا النحو لم يكن الإغريق ذلك الضمير المطمئن ، ولا ذلك الشعور بالاستقرار ، ولا ذلك الإيمان

بالأرض الذى يوحى بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة !.. إن عاطفة الاستقرار والإيمان عند المصريين ممزوجة بالسدم ؛ لأن المصريين نزلوا من بطن الأزل إلى أرض مصر ، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه التحقيق ، واختلاف العلماء فى أمر أصلهم لم ينته بعد ، وفى كل يوم يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجدا فى مصر قبل التاريخ المعروف . ولقد ظهرت الحضارة المصرية فى التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة ؛ كما يظهر قرص الشمس فى الأفق عند الشروق !.. ولقد قال « سولون » : إن الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات تلك القارة العظيمة ذات المدنية الزاهرة التى ابتلعها المحيط قبل مبدأ التاريخ : « قارة الأتلانتيد ». أترى كانت الحضارة المصرية استمرارًا لتلك المدنية المندثرة ؟.. لم يقم دليل . على كل فرض ؛ « مصر » أمة مستقرة مؤمنة ، زهدها عمرها الطويل ، وخيرها الكثير فى مباذل الحياة ، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن المصرى ، ولا شيء يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها ؛ فلقد طالع العالم الحديث على وجه الفن المصرى الصرامة والجد

والعمق ، ولا أكاد أفتح كتابا فى الفن المصرى حتى أجد كلمة « الصرامة » نعتا من نعوت هذا الفن ، ولا أفتح كتابا فى الفن الإغريقى إلا وجدت كلمة « الحياة » وكلمة « الإنسانية » من نعوت هذا الفن !.. نعم الحياة هى كل شىء عند الإغريق قد يدفعهم حب البحث إلى لمس حدود الحياة الأخرى فيلمسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح . فلسفتهم فلسفة العقل والمنطق والحياة !.. فلسفة الحركة لا فلسفة السكون !.

عند « مصر » و « الهند » السكون ، عند « الإغريق » الحركة . قرأت حديثا « المقبرة البحرية » لـ « بول فاليرى » ، وهو المتصل اتصالا مباشرًا بالفلسفة اليونانية ، فإذا هو يشير فى قصيدة إلى الحركة والسكون ، وإذا الحركة عنده من خصائص العدم الخالد غير الواعى ، وهو يعارض « زينون » الألياتى فى إنكاره للحركة ، ويتغنى فى آخر القصيدة بانتصار الحركة ، أى الحياة على قصرها وفنائها ؛ فهو فى ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة. ولم يفهم فى رأيى روح «مصر» و «الهند»!.. ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعى، فإن دون هـذا الإشراف

والاتصال التجرد التام من كل عقل آدمى أو منطق بشرى !..
هذه هى الصعوبة فى فهم « مصر » و « الهند » ، وهذا ما جعل الفن المصرى سرًا مغلقًا حتى أوائل هذا القرن ، وما صرف الناس إلى دراسة اليونان وحدها ، فهى واضحة المعنى يسيرة المنال ؛ لأنها لزمت شاطئ الحياة ..

حظ « الإغريق » فى كل هذا حظ العرب أيضًا ؛ أمة نشأت فى فقر لم تعرفه أمة غيرها .. صحراء قفراء .. قليل من الماء يثير الحرب والدماء .. جهاد وكفاح لا ينقطعان فى سبيل العيش والحياة .. أمة لاقت الحرمان وجهًا لوجه ، وما عرفت طيب الثمار وجرى الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا فى السِّيَر والأخبار ، كان حتمًا عليها ألا تحس المثل الأعلى فى غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ، والماء الجارى ، وألوان النعيم واللذائذ التى لا تنضب ولا تنتهى !.. أمة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع ، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع !.. كل تفكير العرب وكل فن العرب فى لذة الحس والمادة ، لذة سريعة منهومة مختطفة اختطافا ؛ لأن كل شىء عند العرب سرعة ونهب واختطاف !..

عند الإغريق الحركة ، أى الحياة ، وعند العرب السرعة ، أى اللذة .. لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من أطايبها اختطافًا ركضًا على ظهور الجياد .. كل شيء قد يحسونه إلا عاطفة الاستقرار .. وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ؟.. دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار ، حيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا « ميتولوجيا » ولا خيال واسعا ولا تفكير عميقا ، ولا إحساس بالبناء !.. لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ، سواء فى العمارة أو فى الأدب أو فى النقد.. الأسلوب العربى فى العمارة من أوهى أساليب العمارة التى عرفها تاريخ الفن، وإذا عاش لليوم فإنما يعيش بالزخرف.. فن الزخرف العربى هو الذى أنقذ العمارة العربية.. إن العمارة العربية — إلا فى «مصر» — ما هى فى رأيى سوى زخرف لا بناء؛ فلا أعمدة هائلة، ولا جبهة عريضة، ولا وقفة ولا بساطة عظيمة، ولا روعة عميقة، إنما هى وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع يبهر البصر، ولا فكر خلفه!..

أما فن الزخرف العربى فهو فى الحق أجمل وأعجب فن للزخرف خلده التاريخ .. والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف .كل شيء عند العرب زخرف .. الأدب نثر وشعر لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس . « فسيفساء » اللفظ والمعنى ، و « أرابسك » العبارات والجمل !.. كل مقامة للحريرى ؛ كأنها باب لجامع المؤيد : تقطيع هندسى بديع ، وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذًا بالبهرج الخلاب !.. كذلك الغناء العربى « أرابسك » صوتى ، فلا مجموعة أصوات منسقة البناء ؛ كما فى « الديتيرامب » أو « الأوركسترا » الإغريقية أو كما فى « الكورس » الجنائزى المصرى . ولا حتى مجرد صوت ينطلق حرًا بسيطًا مستقيما !.. إنما هو صوت محمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم ؛ كأنها « ستالاكتيتات » غرناطية ، لا يكاد يسمعه « القاضى الفاضل » حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه ، كان هذا فى العهد الأولى للموسيقى ؛ إذا كانت عند

جميع الشعوب بسيطة عارية ، تخرج من القلب تعبيرًا عما فى القلب ، أو رمزًا لفكرة من الأفكار !.. والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية ، ولكن العرب لا يحبون الرمز ؛ ولا طاقة لهم بالفن الرمزى ، ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز إلا الصلة المباشر بالحس ؛ فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل ، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل . ولقد حاول « الفارابى » — فيما أذكر — التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الإغريقية ، وكان لا بد له من الإخفاق . لأسباب قد أذكرها بعد !..

كذلك التصوير العربى على جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات ، ولم يؤد لغير تلك الغاية « المنياتور » الفارسى .. قد يكون للدين دخل فى تأخر النحت والتصوير عند العرب ، غير أنى اعتقد فى براءة الدين ، فإن العرب كانوا دائمًا ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم ؛ لقد حرّم الدين الشراب فأحلوا هم الشراب فى قصور الخلفاء ، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر فى أدب أمة بأحسن مما

وصفت فى الأدب العربى !.. لاشىء فى الأرض ولا فى السماء يستطيع أن يحول بينهم وبين اللذة ..

أما النحت أو التصوير الكبير فليس فى طبيعتهم ؛ لأن تلك الفنون تتطلب فيمن يزاولها إحساسًا عميقًا بالتناسق العام ، مبناه التأمل الطويل ، والوعى الداخلى للكل فى الجزء ، وللجزء فى الكل ، وليس هذا عند العرب ؛ فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل ، وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد .. لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق فى الأدب ؛ لأنهم لا يحتاجون إلا للذة الجزء واللحظة .. قليل من الكتب العربية فى الأدب يقوم على موضوع واحد متصل ، إنما أكثر الكتب « كشاكيل » فى شتى الموضوعات ، تأخذ من كل شىء بطرف سريع: من حكمة وأخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسدية ، وحتى إذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء ، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ، ولا « تراجيديا » واحدة ، ولا قصة واحدة . العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية فى العمل الفنى الكبير ؛ لأنها تتعجل اللذة ، يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة

واحدة أو لفظ واحد أو نغم أو زخرف تمتلئ طربًا وإعجابا ؛ — لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوى وإشباع لذات الحس ؛ حتى الحكمة وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة : إشباع لذة المنطق ، والمنطق جمال دنيـوى .. لا أستغرب غضب « نيتشه » على « إيروبيد » لإسرافه فى هذا المنطق على حساب الموسيقى !..

من المستحيل إذن أن نرى فى الحضارة العربية كلها أى ميل لشئون الروح والفكر بالمعنى الذى تفهمه « مصر » و « الهند » من كلمتى الروح والفكر !.. إن العرب أمة عجيبة ، تحقـق حلمها فى هذه الحياة ، فتشبثت به تشبث المحروم ، وأبت إلا أن تروى ظمأها من الحياة ، وأن تعب من لذاتها عبا قبل أن يزول الحلم ويعود شقاء الصحراء ، وقد كان .. إن موضوع الحضارة العربية من « سانفونية » البشرية كموضوع الـ « سكيرتزو » من سانفونية « بيتهوفن » نغم سريع مفرح لذيذ !!..

لا ريب عندى أن مصر والعرب طرفا نقيض : مصر هى الروح ، هى السكون ، هى الاستقرار ، هى البناء !.. والعرب

هى المادة،هى السرعة ، هى الظعن ، هى الزخرف ..

مقابلة عجيبة : مصر والعرب وجها الدرهم وعنصرا الوجود .. أى أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح !.. إنى أومن بما أقول ، وأتمنى للأدب المصرى الحديث هذا المصير : زواج الروح بالمادة والسكون بالحركة ، والاستقرار بالقلق ، والبنساء بالزخرف .. تلك ينابيع فكر كامل ، ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لها من نظير .. إن أكثر المدنيات يميل : إما إلى ناحية الروح ، وإما إلى ناحية المادة !..

حضارة واحدة قيل إنها استطاعت فى وقت ما هذا المزج بين الروح والمادة ، وهذا الاتزان بين عنصرى الوجود ، تلك حضارة « الإغريق » !.. نعم أعود فأرد إلى أمة « الإغريق » اعتبارها وأعترف أنى عندما وضعتها فى كفة المادة كنت متأثرًا بعض الشىء بكلام « تين » ، و « تين » عقل خلاب ، لكنه عقل والعقل وحده بعيد عن فهم الجانب الروحى للمدنيات .. ما هدانى إلى الحق إلا القلب .. إلا طول تأملى فى جبهة « الباريتينون » .. من دماغ ذلك الجواد الذى خلقته يد « فيدياس » ، فوق هذا المعبد

خرجت أفكار توحى إلىّ بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشيء آخر غير مجرد المادة الظاهرة ، وما لبثت « ميلبومين » أن جاءتنى ببينة أخرى ، وتأملت قليلا فرأيت القناع قد كشف ، وذكرت من فورى أن أصل الإغريق جنسان مختلفان : « اليونانيون » القادمون من آسيا ، المعروفون عند الهنود باسم « اليافاناس » أى عباد « يونا » ، و « الدوريون » الحربيون البرابرة الهابطون من الشمال ، وإله اليونانيين هو « ديونيزوس » وإله الدوريين هو « أبولون » .. وها هنا تفسير الإغريق : فى هذا الصراع بين « ديونيزوس » رمز الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة .. وبين « أبولون » رمز الفردية والشخصية المفروزة والوعى ، صراع بين الروح والمادة وبين القلب والعقل ، وبين النشوة والوعى . « ديونيزوس » إله آسيوى فيما يخيل إلىّ ، جلب من « الهند » بلا مراء ، فغدا فى اليونان ينبوع الموسيقى ، لهذا السبب قدرت إخفاق « الفارابى » ، فإن الموسيقى العربية وليدة عقل واع ؛ لأن العرب أمة الفردية والوعى والمنطق العقلى والظاهر المحسوس !.. إن

العرب من عباد « أبولون » وهم لا يشعرون ، إن العرب لا يمكن أن يفهموا « ديونيزوس » ، تلك النشوة الدينية الجارفة ، التى تخرج صاحبها من سيطرة العقل والوعى ؛ كى تصله مباشرة بالطبيعة !.. إن أغانى عباد « باكوس » الحماسية فى الغابات ، ومزامير الـ « ساتير » ؛ لشىء بعيد إدراكه على العقلية الفردية ، شعور الإنسان فى لحظة أنه انقلب مخلوقًا له جسم جواد ورأس رجل ، أو رأس رجل وأرجل ماعز .. هذا الاتحاد بين الحيوان والإنسان إحساس ليس له مثيل إلا عند المصريين القدماء .. هذا التلاق بين الأنواع و بين القوى فى مخلوق واحد هو عند الأولين بقية ذكرى تلك المخلوقات الإلهية البائدة التى كانت تحكم الأرض قبل ظهور الإنسان . مخلوقات لا هى من الإناث ولا هى من الذكور ، ولا هى من الحيوان ، ولا هى من الإنسان ؛ لأن الأجناس والفصائل لم تكن قد فرزت كذلك « الإنسان الدانى من الحيوان ، القريب من الآلهة ، يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتيقظة ينبوع القوة الخالقة عند الإغريق والهنود ؛ كما هى عند المصريين ، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوة الطبيعة

الإلهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا بدون أن يشعر ، وببريق من ذلك النور الروحى والإلهام الذاتى يرى به كتلة الزمن ، من ماض وحاضر ومستقبل فى شبه لمحة واحدة !..

تلك القدرة الخفية هى حاسة بائدة كانت للإنسان الأول ، وفقدناها اليوم .. نعم فقدنا كل القوى الروحية التى منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحبها ونتصل بها و لم يبق لنا اليوم إلا العقل المحدود والمنطق القاصر .. وها نحن أولاء اليوم فى هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة منبوذة !.. أين ذهب « ديونيزس » ؟.. وهل يبعث من جديد ؟.. وإذا بعث فهل يجد من يعرفه فى هذا العصر ذى الحضارة المادية الفردية ؟!..

رجل واحد ما زال يذكر هذا الإله ويستطيع أن يعرفه إذا ظهر كما عرف « غالياس »[1] أصحاب الكهف !!.. وهو وحده كذلك يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر ، هذا الغالياس العصرى هو : « تاجور » !.. إنه يتكلم كثيرًا عن ذلك الاتحاد بين الإنسان والطبيعة ؛ وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة

(١) أحد أبطال قصتى (أهل الكهف)

وبين الحياة العظمى الذى يخترق الكون ، وعن ذلك الحب بين الإنسان والجماد ، هذا كلام جميل ، لكن هل تراه يشعر بحقيقته ؟.. يخيل إلىّ أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الإغريق ، بل لقد انقضت قبل أن تنقضي دولة الإغريق !.. انقضت بطغيان منطق « سقراط » على روح « هوميروس » ، انقضت بطرد « ديونيزوس » من « تراجيديات إيروبيد »، « غضبة « نيتشة » المعرفة .. » انقضت بغلبة الإحساس الفعلى على الإحساس الروحي .. انقضت بانتصار « أبولون » فى النهاية على « ديونيزوس » ..

وهكذا اختل التوازن ، ورجحت كفة المادة ، وانطفأت الحضارة الإغريقية إلى الأبد ، ولم ترث أوربا منها غير كنوز العقل والمنطق ، وبقيت فى الظلام كنوز « ديونيزوس » الخفية !..

لم تنجح اليونان إذن النجاح المطلوب فى تطعيم الروح بالمادة ، فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يومًا »...

(دمنهور) فى مايو ١٩٣٣ م من رسالة إلى (طه حسين) !..

* * *

التعليم

بين « الماء والهواء » و « الطعام للفم والعقل »

بعد الرسائل المتبادلة فى « الشخصية المصرية » بينى وبين طه حسين مرت أعوام وظهر شعار ذلك الصديق عن « التعليم الذى كالماء والهواء ».. لم أتحمس كثيرًا لذلك الشعار ، إذ وجدته مفتقرًا إلى الدقة والعمق .. فالماء والهواء يشترك فيهما الحيوان مع الإنسان .. ولذلك فضلت عليه شعارًا آخر هو « الطعام لكل فم وعقل » لأنه يميز الإنسان عن الحيوان .. فالطعام للإنسان يختلف عن الطعام للحيوان .. ونوع الطعام يميز الشخصية عند الإنسان ..

وإذا كان المقصود بالتعليم الذى كالماء والهواء هو محو الأمية عند الجميع ، فما قيمة محو الأمية الأبجدية مع بقاء الأمية العقلية ؟!.. محو الأمية العقلية يحتاج إلى طعام عقلى لا بد من اختياره

بدقة وإعداده بعناية ..

لقد انتشر التعليم الذى كالماء والهواء بالمجانية ، و لم يتغير شيء كثير فى عقلية الأمة ، الذى كثر عدده هو مكاتب الموظفين الذين لا ينتجون شيئًا يرق بعقلية الأمة !..

كما أصبح التعليم مجرد الحصول على شهادة للحصول على وظيفة ، لا شأن له بالتكوين الثقافى للعقلية والشخصية ..

وتذكرت « الكوليج دى فرانس » الذى كنت أقطن أمامه فى باريس ؛ كلية ممتازة بأساتذتها وعلماءها الكبار ، يلقون محاضراتهم لمن يرغبون من الحاضرين فى تنوير عقلهم وتكوين شخصيتهم . يدخلون بالمجان ، وبغير شروط .. ولا يؤدون أى امتحان .. فالهدف ليس النجاح فى امتحان ولا الحصول على شهادة ، ولا الانتظام فى دراسة .. إن هو إلا منارة للفكر والحضارة ، تشع الضوء ، بلا غرض سوى إبادة الظلام من العقول والنفوس ..

متى توجد عندنا هذه « الكليات المنارات » التى تشع النور على الجميع ، وتلقى طعام العقل بالمجان بغير امتحانات ولا مجاميع

ولا شهادات ؟..

إن مصر الخالدة التى تكونت شخصيتها على مدى العصور والعهود ، من العهد الوثنى إلى العهد الإلهى بأديانه الثلاثة : الموسوية والمسيحية والإسلام ، قد رسبت فى قلبها ، كما ذكرت فى « عودة الروح » كل حضارة الإنسانية .. وعرفت فى عهد من عهودها ما شاهدته فى « الكوليج دى فرانس » من دخول أى شخص إلى الأزهر الشريف ، يستمع إلى عالم جليل يستند إلى عمود المسجد ويلقى علمه على الناس المجتمعين حوله ، ولا هدف لهم من شهادة أو وظيفة أو أى مطلب من مطالب الحياة المادية .. لا شىء إلا تلقى الضوء الذى ينير عقولهم وقلوبهم ..

لم يعد هذا موجودًا اليوم ، فالعلم والتعليم للحصول على الشهادات والدرجات .. أما التنوير الروحى والعقلى لتكوين الشخصية ، فلا تفكير فيه .. حتى الجامعة العصرية التى تدخل كل بيت واسمها « التليفزيون » إن هى إلا أداة إمتاع وترفيه ، أكثر مما تفهم على أنها أداة تنوير وتكوين ..

ويرحم الله الشخصية المصرية ، والأسرة العربية الكبيرة .. ؟

صفر ١٤٠٤ ديسمبر ١٩٨٣

فهرست الكتاب

صفحة

رقم الإيداع : ٣٣٣٥ / ١٩٨٨
الترقيم الدولى : ٤ — ٠٣٩٥ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٢٧٥ قرشاً

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه